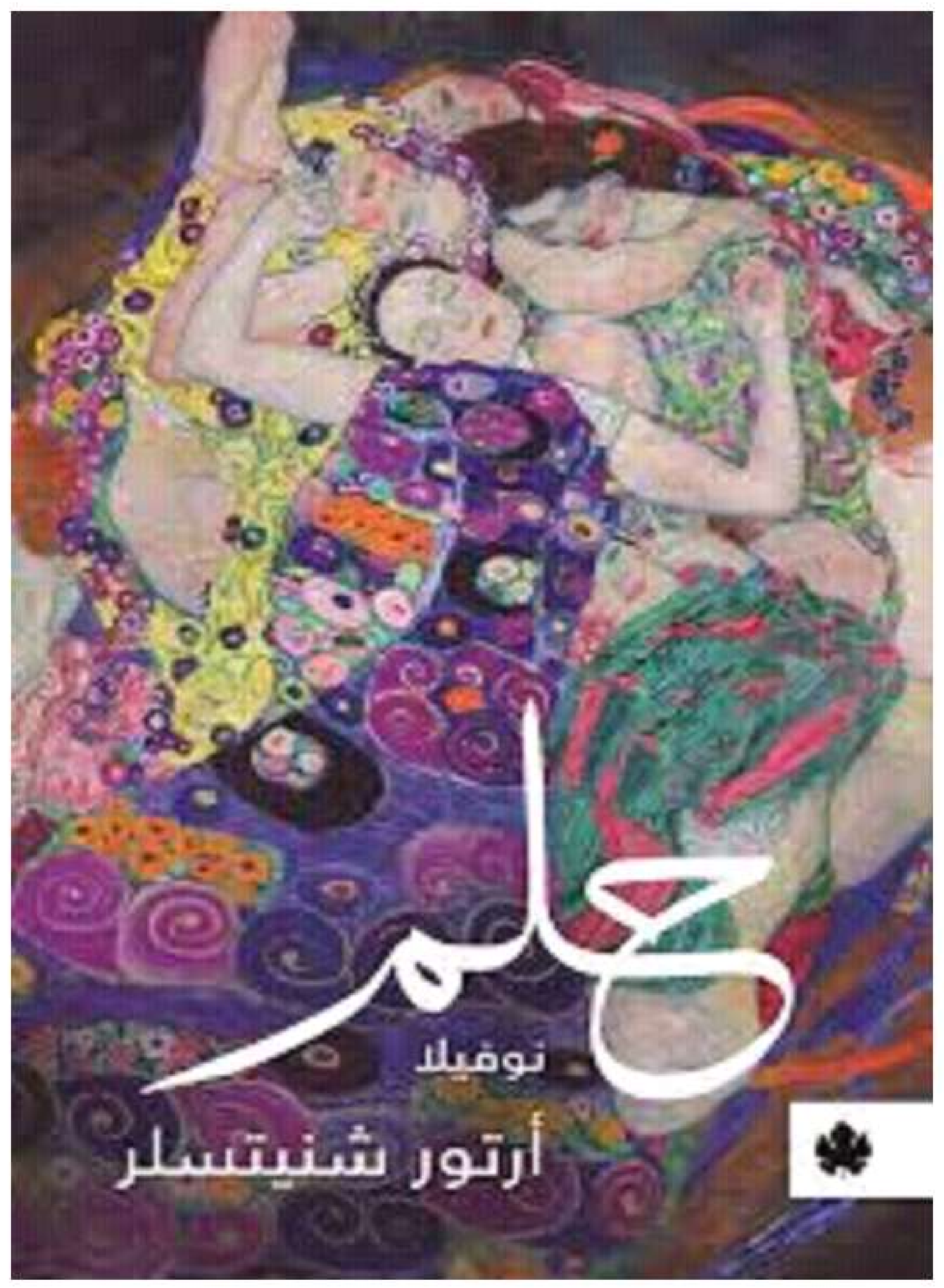

حلم
نوفيلا
أرتور شنيتسلر

حُلم نوفيلا

أرتور شنيتسلر



لمزيد من المعلومات عن الكرمة: facebook.com/alkarmabooks

العنوان الأصلي: Traumnovelle
أرتور شنيتسلر، ١٩٢٥
الحقوق الفكرية للمؤلف محفوظة
حقوق الترجمة © سمير جريس

نشر هذا الكتاب بدعم كريم من
Federal Chancellery
Republic of Austria

حلم: نوفيلا / أرتور شنيتسلر؛ ترجمها من الألمانية سمير جريس - القاهرة: الكرمة للنشر، ٢٠٢٠.
١٦٨ ص؛ ٢٠ سم.
تدمك: 9789776743090
أ-
أ- جو
رقم الإيداع بدار
٣ ١
تصـ
لوحة الغلاف: العذراء
المتحف الو



١

«كان أربعة وعشرون عبدًا سُمر البشرة يجذفون القارب الفخم الذي يقل الأمير أمجد إلى قصر الخليفة. أما الأمير فرقد بمفرده في مقصورته، ملتحفًا بمعطفه الأرجواني، تحت السماء الليلية داكنة الزرقة والمرصعة بالنجوم، ونظرتُه...».

قرأت الصغيرة الحكاية حتى هنا بصوتٍ عالٍ؛ وفي تلك اللحظة، على نحو فجائي تقريبًا، سقط جفناها. تبادل الوالدان النظر مبتسمَين، وانحنى «فريدولين» عليها وقبّلها على شعرها الأشقر، ثم أغلق الكتاب الموضوع على الطاولة التي لم ترتَّب بعد. فتحت الطفلة عينيها وكأنها ضُبطت متلبسة.

قال الأب:

ـ الساعة الآن التاسعة. حان وقت الذهاب إلى الفراش.

انحنت «ألبرتينه» على الطفلة أيضًا، فتلاقت يدا الوالدين على جبهة المحبوبة، وبابتسامة رقيقة ـ لم تعد الصغيرة وحدها هي المقصودة بها ـ تقابلت نظرتاهما. دخلت المربية إلى الغرفة، ونبهت الطفلة إلى أن عليها أن تتمنى للوالدين ليلة سعيدة. أطاعت الصغيرة ونهضت، ومطت شفتيها تجاه الأب والأم وقبّلتهما، واستسلمت للمربية التي أخرجتها من الغرفة في هدوء. بعد أن أصبح «فريدولين» و«ألبرتينه» وحدهما تحت الضوء المائل إلى الحمرة الصادر عن المصباح المعلق في السقف، شعرا فجأة برغبة متعجلة في استئناف الحديث الذي بدآه قبل العشاء حول ما مرا به في حفل الأقنعة في الليلة السابقة.

كانت الحفلة الراقصة هي الأولى في هذا العام التي قررا المشاركة فيها، قُبيل انتهاء الكرنفال. بمجرد أن وطأ «فريدولين» أرض القاعة، رحب به شخصان مُقنَّعان يرتديان ثيابًا حمراء، وكأنه صديق ينتظرانه على أحر من الجمر. لم يستطع أن يعرف هويتهما، مع أنهما كانا يعلمان بدقة لافتة كل الحكايات الممكنة عن فترة دراسته وعمله في المستشفى. قاداه بلطف واعد إلى غرفة

صغيرة، ثم انصرفا بعد أن تعهدا بالعودة سريعًا جدًّا، ومن دون قناع؛ لكن غيابهما طال إلى حدٍّ جعله يفقد صبره، ولذلك آثر العودة إلى المدخل حيث كان يأمل في لقاء هذين الشخصين غريبَي الأطوار مجدداً. تلفت حوله كثيراً باحثاً عنهما، لكنه لم يبصرهما في أي مكان؛ وبدلًا منهما تأبط ذراعه بغتة كيان أنثوي آخر: قرينته التي انسحبت بحركة مفاجئة من صحبة شخص مجهول، سحرها في البداية بطبيعته المتعالية الحزينة ولكنته الأجنبية ـ على ما يبدو لكنة بولندية ـ لكنه فجأة جرحها، بل أفزعها عندما نطق على غير توقع بكلمة قبيحة وقحة. وهكذا جلس الزوج والزوجة، في الحقيقة مبتهجَين لأنهما استطاعا الهرب من لعبة تنكرية تافهة ومخيبة للآمال، وسرعان ما توجها إلى غرفة البوفيه، وكعاشقين بين ثنائيات العشاق أخذا يستمتعان بالشمبانيا والمحار، وبتجاذب أطراف الحديث كأنهما تعارفا لتوهما، وانهمكا في لعبة مرحة، فيها الغزل والمقاومة، والإغراء والاستجابة؛ وبعد رحلة سريعة بالعربة في ليل الشتاء الأبيض سقط كل منهما في حضن الآخر عندما وصلا إلى البيت، وغاصا في سعادة عشق حار لم يعايشا مثله منذ زمن. وبعد فترة قصيرة للغاية أيقظهما صباح رمادي. مهنة الزوج تطالبه بأن يذهب في الصباح الباكر إلى أسرَّة مرضاه، أما «ألبرتينه» فلا تستطيع أن تستريح مدة أطول بسبب الأعمال المنزلية وواجبات الأمومة. وهكذا مرَّت الساعات بعد الاستيقاظ في قضاء المهام اليومية والأعمال المحددة سلفًا، وبهتت ذكرى الليلة السابقة، بدايتها ونهايتها على حدٍّ سواء. وبعد أن انتهى كلاهما من عمله اليومي، وبعد أن ذهبت الطفلة إلى فراشها ولم يعودا يتوقعان أن يزعجهما أي شيء، عندئذٍ فحسب تراءت لهما خيالات الحفل الراقص وأضحت حقيقية: خيال الرجل المجهول الحزين والشخصَين الأحمرَين؛ وأمست تلك الأحداث التافهة فجأة ساحرة ومؤلمة، وموشجة بالضوء الخدَّاع المنبعث من الفرص الضائعة. راحا يتبادلان أسئلة بريئة وإن كانت تنصب فخاخًا، وإجابات ماكرة تحمل أكثر من معنى؛ لم يغب عن كليهما أن الآخر لم يكن صريحًا كل الصراحة، وهكذا شعر كل منهما برغبة خفيفة في الانتقام من الآخر. بالغا في قدر الجاذبية التي شعرا بها تجاه شركاء الحفل المجهولين، وتهكما على مشاعر الغيرة التي بدرت عن الآخر، وأنكر كل

منهما غيرته الشخصية. عبر الثرثرة العابثة حول المغامرات التافهة في الليلة الماضية، دخلا في حديث جاد حول تلك الرغبات الخفية، التي لا تكاد تُدرَك، والتي تثير دوامات خطيرة عكرة، حتى في أصفى الأرواح وأنقاها. وتحدثا عن المناطق السرية التي لم يشعرا تجاهها بحنين يُذكر، لكن رياح القدر العاتية قد تقودهما إليها ذات يوم، حتى وإن كان ذلك في الحلم فحسب. ومع أنهما كانا يشعران بتوحد تام في مشاعرهما وحواسهما، فقد كانا يعرفان أن طيف المغامرة والحرية والخطر قد مسهما بالأمس، ولم تكن تلك هي المرة الأولى؛ بخوف وعذاب نفس، وبفضول غير بريء، حاول كل منهما أن يحمل الآخر على البوح باعترافات؛ خائفَين اقتربا من بعضهما البعض، وراح كل منهما يفتش في داخله عن أي حقيقة، مهما كانت هينة، يفتش عن حدث، مهما كان تافهًا، يصلح لأن يُعبر عما لا يُقال، لعل الاعتراف الصادق يحررهما من توتر وشَك كادا يصبحان، مع مرور الوقت، فوق قدرتهما على الاحتمال. «ألبرتينه» ـ ألأنها أقل صبراً أم أكثر صدقًا وطيبة منه؟ ـ وجدت قبله شجاعة البوح؛ وبصوت مهتز قليلًا سألت «فريدولين» عما إذا كان يتذكر الشاب الذي كان ذات مساء في الصيف المنصرم، في الدنمارك، يتناول طعامه على الشاطئ مع اثنين من الضباط على المائدة المجاورة، وتلقى خلال العشاء تلغرافًا، وفي إثره عجل بتوديع أصدقائه.

أومأ «فريدولين»، ثم سألها:

ـ ماذا عنه؟

ردت «ألبرتينه»:

ـ كنت قد رأيته في الصباح عندما كان يصعد مسرعًا درج الفندق، ممسكًا بحقيبة يد صفراء. تفحصني بنظرة سريعة، لكنه لم يتوقف إلا بعد صعوده عدة درجات أخرى، ثم التفت إليَّ فتلاقت نظرتانا. لم يبتسم، نعم، بل بدا لي أن وجهه تجهم، ومن المرجح أن شيئًا مشابهًا حدث لي أيضًا، لأن عواطفي تحركت على نحو لم أعرفه من قبل. رقدتُ على الشاطئ طوال النهار ضائعة في أحلامي. إذا

دعاني ـ هكذا ظننتُ ـ فلن أستطيع صده. خِلتُ أنني مستعدة لكل شيء؛ أن أضحي بك، وبطفلتي ومستقبلي، اعتقدتُ أنني قد عزمت على ذلك، وفي الوقت نفسه ـ هل ستفهم ذلك؟ ـ شعرت أنك كنتَ عزيزاً إلى قلبي أكثر من أي وقت مضى. في تلك العصرية تحديدًا، لا بد أنك تتذكر ذلك، شاء القدر أن نتحدث حديثاً مفعمًا بالألفة، تكلمنا عن آلاف الأشياء، وتكلمنا أيضًا عن مستقبلنا معًا، وعن الطفلة، مثلما لم نفعل منذ فترة طويلة. وعند غروب الشمس جلسنا على الشرفة، أنت وأنا، عندئذٍ مرَّ وهو يتمشى على الشاطئ تحت الشرفة، من دون أن يرفع نظره، وشعرتُ بالسعادة لرؤيته. لكني مسحت على جبهتك، وقبّلتُك على شعرك. كان حبي لك يخفي في الوقت ذاته شفقة مؤلمة. في المساء كنتُ جميلة جدًّا، هذا ما قلتَه لي بنفسك، وكنتُ أضع وردة بيضاء في حزامي. وربما لم يكن من قبيل المصادفة أن يجلس الغريب مع أصدقائه إلى جانبنا. لم يُنعم عليَّ بنظرة، ولكن راودتني فكرة النهوض والذهاب إلى مائدته، وأن أقول له: «هأنذا، يا مَن كنتُ أنتظره، يا حبيبي، ضمني إليك». في تلك اللحظة أحضر له أحدهم التلغراف، فقرأه، وشحب وجهه، ثم همس بكلمات قليلة إلى أصغر الضابطَين، وألقى تجاهي نظرة عابرة غامضة، ثم غادر القاعة.

عندما صمتت، سألها «فريدولين» بنبرة جافة:

ـ ثم؟

ـ لا شيء. كل ما أعرفه هو أنني استيقظت في الصباح التالي بخوف مبهم. من أي شيء خفت؟ هل من رحيله، أم من إمكانية بقائه؟ لا أعرف، ولا حتى آنذاك كنت أعرف الإجابة. لكن عندما لم يظهر في الظهيرة أيضًا، تنفست الصعداء. لا تسألني أكثر من ذلك يا «فريدولين»، لقد صارحتك بالحقيقة كاملة. وأنت أيضًا مررت على ذلك الشاطئ بخبرة ما، أعرف ذلك.

نهض «فريدولين»، وراح يذرع الغرفة عدة مرات جيئة وذهاباً، ثم قال:

ـ عندك حق.

كان يقف عند النافذة ووجهه في الظلام. ثم شرع يغمغم بنبرة عدوانية بعض الشيء:

ـ اعتدت في الصباح، وفي بعض الأحيان مبكراً جدًّا قبل أن تنهضي من النوم، أن أتجول بمحاذاة الشاطئ، مبتعدًا عن مكان إقامتنا. ومهما كان الوقت باكراً، كنتُ دائمًا أجد الشمس مشرقة ترسل أشعتها المنيرة القوية فوق البحر. على الشاطئ، كما تعرفين، بيوت ريفية صغيرة، كل يقف بمفرده ـ عالم صغير مستقل ـ وبعضها مزود بحدائق مسورة، والبعض الآخر لا تحيط به سوى الغابة، وكان يفصل كبائن التصييف عن البيوت طريق السيارات وجزء من الشاطئ. في مثل تلك الساعة الباكرة لم أكن أقابل أحدًا إلا نادرًا، أما السباحون فلم أصادف أحدًا منهم قَطُّ. ولكن، ذات صباح، لمحتُ فجأة كيانًا أنثويًّا، كانت ـ حتى لحظة مضت غير مرئية ـ تواصل التحرك بحذر على شرفة ضيقة لكابينة بنيت أساساتها على الرمل. تضع قدمًا أمام الأخرى، فاردةً ذراعيها عن آخرهما إلى الخلف لتستند إلى الجدار الخشبي. فتاة غريرة، ربما في الخامسة عشرة من عمرها، شعرها الأشقر محلول، يمر على كتفها من جانب واحد وينساب على نهدها الغض. كانت الفتاة تتطلع إلى الأمام، مرسلة نظرها إلى الماء، وببطء تواصل سيرَها بمحاذاة الجدار، موجهة نظرها إلى أسفل، إلى الجانب الآخر، وفجأة وقفت في مواجهتي تمامًا؛ ذراعاها مفرودتان عن آخرهما إلى الخلف، وكأنها تريد التشبث بقوة أكبر، ثم رفعت بصرها فرأتني فجأة. سَرت في بدنها رعدة، وكأن عليها أن تغوص في الأرض أو أن تولي الفرار. ولكنها لم تكن تستطيع أن تواصل مسيرها على اللوح الخشبي النحيل إلا ببطء تام، لذا كفَّت عن الحركة. وهكذا كانت تقف هناك، مذعورة في البداية، ثم اعتلى وجهها غضب، تحول في النهاية إلى ارتباك. غير أنها ابتسمت، على حين غرة، ابتسامة رائعة؛ كانت تحية، نعم، تجلت في عينيها إيماءة، وفي الوقت نفسه لاح استهزاء خفيف عندما داعبت بقدميها، على نحو عابر تمامًا، الماءَ الذي فصلني عنها. عندئذٍ استقام جسدها الفتي الرشيق، وكأنها سعيدة بجمالها. كان من السهل ملاحظة أنها شعرت ـ عبر ألق نظراتي التي أحست بها مستقرة على جسدها ـ بفخر خفيف وإثارة حلوة. وهكذا واجه أحدنا الآخر، طوال عشر ثوانٍ ربما، بشفاه شبه

منفرجة وعيون براقة. من دون أن أشعر مددت يديَّ ناحيتها؛ في نظرتها بهجة واستجابة. لكنها هزت رأسها فجأة بعنف، وابتعدت ذراعها عن الجدار، وبإشارة أمرتني أن أبتعد؛ وعندما لم أستطع أن أطيعها في الحال، رأيت في عينيها الطفوليتين رجاء وتضرعًا، لم يدعا أمامي مفرًّا من الانصراف. واصلتُ السير في طريقي بأقصى سرعة ممكنة، لم ألتفت مرة واحدة إلى الوراء، ليس بدافع من المراعاة لمشاعرها، أو الطاعة أو الشهامة، بل لأنني أحسست، بعد نظرتها الأخيرة، باختلاج في نفسي فاق كل ما عايشته حتى تلك اللحظة، حتى إني شعرت أنني على وشك فقدان الوعي.

وصمتَ.

سألته «ألبرتينه» بنبرة عادية تمامًا، وهي ترسل نظرها إلى الأمام:

ـ وكم من مرة سرتَ على الطريق نفسه بعد ذلك؟

رد «فريدولين»:

ـ ما حكيته لك، حدث مصادفة في آخر أيام إقامتنا في الدنمارك. أنا أيضًا لا أعرف ما كان يمكن أن يحدث في ظروف أخرى. إذن، لا تواصلي السؤال أنتِ أيضًا يا «ألبرتينه».

كان لا يزال يقف عند النافذة، من دون حراك. نهضت «ألبرتينه» وسارت في اتجاهه، وعيناها رطبتان ومظلمتان، وجبينها مقطب قليلًا. قالت له:

ـ نريد في المستقبل أن يحكي كل منا للآخر مثل هذه الأشياء فور حدوثها.

أومأ صامتًا.

ـ عدني!

جذبها إليه. وسألها:

ـ ألستِ متأكدة من ذلك؟

غير أن صوته كان لا يزال قاسيًا.

تناولت يديه، وربتت عليهما، ثم تطلعت إليه بعينين دامعتين، قرأ فيهما أفكارها. راحت تفكر في خبراته الأخرى، الحقيقية، فكرت في خبراته الشبابية التي أشركها في بعضها، إذ إنه استجاب طائعًا إلى فضولها الغيور في السنوات الأولى من الزواج، وباح لها ببعض الأشياء، نعم، لقد بدا له مرارًا أنه قد أفشى أسرارًا كان يفضل لو احتفظ بها لنفسه. كان يعرف أن بعض الذكريات تلح عليها في هذه الساعة، ولذلك لم يكد يتعجب عندما نطقت، وكأنها تحلم، باسم حبيبةِ شبابه، ذلك الاسم الذي كاد ينساه. لكن وقعه كان كاتهام، نعم كتهديد خافت الصوت.

سحب يديها ووضعهما على شفتيه.

ـ في كل كائن، صدقيني حتى وإن بدا قولي مستهلكًا، في كل كائن اعتقدت أنني أحبه، كنت لا أبحث إلا عنك. إنني أعرف ذلك على نحو أفضل من قدرتك على فهمه يا «ألبرتينه».

ابتسمت ابتسامة مكدرة. قالت:

ـ وماذا لو كنتُ أفضل أن أبحث بنفسي أولًا؟

تغيرت نظرتها، وأمست باردة، من الصعب النفاذ إليها. ترك يديها تنسحبان من يديه، وكأنه ضبطها وهي تكذب عليه أو تخونه.

بادرته هي بالقول:

ـ آهٍ لو تعرفون...

ثم التحفت بالصمت ثانية.

ـ لو نعرف؟ ماذا تريدين القول؟

بقسوة غريبة أجابته:

ـ تقريبًا ما تفكر فيه يا عزيزي.

ـ «ألبرتينه»... هناك، إذن، شيء أخفيتِه عني؟

أومأت، ونظرت أمامها وعلى وجهها ابتسامة غريبة.

استيقظت داخله شكوك هائلة، عصية على التصديق. قال لها:

ـ لا أفهم تمامًا. عندما خطبتك، لم تكوني وصلت إلى السابعة عشرة من عمرك.

ـ كنت تجاوزت السادسة عشرة، نعم يا «فريدولين». ومع ذلك...

سددت نظرة مباشرة إلى عينيه، وتابعت:

ـ ومع ذلك، لم يرجع الأمر لي، أنك تزوجتني عذراء.

ـ «ألبرتينه»!

وانطلقت تحكي:

ـ حدث ذلك على بحيرة «فورتر»، قبل خطبتنا بقليل يا «فريدولين»، في أمسية صيفية جميلة كان شاب في غاية الوسامة يقف عند نافذتي التي تطل على المرج الكبير الرحب، تبادلنا الحديث، وفي أثناء كلامنا فكرتُ، نعم، اسمع ما فكرتُ فيه: «يا له من شاب لطيف وساحر! إنه لا يحتاج إلا إلى النطق بكلمة واحدة، طبعًا لا بد أن تكون الكلمة المناسبة، وسأخرج إلى المرج لأقابله وأتمشى معه حيثما أراد، إلى الغابة ربما، أو سيكون أجمل لو أخذنا قاربًا وأبحرنا في البحيرة، بإمكانه أن يحصل مني في هذه الليلة على كل ما يشتهيه». نعم، هكذا فكرتُ. لكنه لم ينطق بالكلمة، ذلك الشاب الساحر؛ قبَّل يدي برقة فحسب، وفي الصباح التالي سألني ما إذا كنت أريد أن أصبح زوجته. فقلتُ: «نعم».

ترك «فريدولين» يدها مستاءً، ثم قال:

ـ لو كان شخص آخر وقف عند نافذتك في تلك الأمسية، وحضرت إلى ذهنه الكلمة المناسبة، مثلًا...

راح يفكر أي اسم يختاره، غير أنها مدت ذراعيها وكأنها تدافع عن نفسها، وقالت:

ـ كان بإمكان شخص آخر، أيًّا كان هذا الشخص، أن يقول ما يشاء، لم يكن ذلك سيفيده كثيراً. ولو لم تكن أنت هو الشخص الذي وقف أمام النافذة...

تطلعت إليه مبتسمة، ثم واصلت:

ـ لما كانت تلك الأمسية الصيفية بمثل هذا الجمال.

عوج فمه متهكمًا:

ـ هذا ما تقولينه في هذه اللحظة، وهذا ما تعتقدينه ربما في هذه اللحظة. لكن...

قُرع الباب. دخلت الخادمة وأبلغتهما أن المدبرة المنزلية من شارع «شرايفوجل-جاسه» قد حضرت لكي يذهب السيد الدكتور إلى مستشار القصر الملكي لأن حالته ساءت جدًّا مرة أخرى. توجه «فريدولين» إلى المدخل، وعرف من المدبرة المنزلية أن المستشار عانى نوبة قلبية، وأنه يشعر بتدهور كبير في صحته، فوعدها بالذهاب إليه فوراً.

ـ أتريد الذهاب؟

هكذا سألته «ألبرتينه» عندما انهمك في تهيئة نفسه بسرعة للانصراف. كانت نبرتها غاضبة وكأنه يظلمها عمدًا ومع سبق الإصرار.

ردَّ «فريدولين»، وكأنه يُبدي تعجبه:

ـ لا بد!

تنهدَت تنهيدة خفيفة.

قال «فريدولين»:

ـ آمل ألا تكون حالته سيئة جدًّا، حتى الآن كانت ثلاثة «سنتي» من المورفين تساعده على اجتياز الأزمة.

كانت الخادمة قد أحضرت معطف الفراء، فقبَّل «فريدولين» «ألبرتينه» على جبهتها وفمها وهو مشتت بعض الشيء، وكأن حديث الساعة الماضية قد انمحى من ذاكرته، ثم انصرف مسرعًا.

٢

وجد نفسه يفتح الفراء في الشارع. فجأة ارتفعت درجات الحرارة، وذابت الثلوج على الرصيف كلها تقريبًا، وسادت في الأجواء نفحات الربيع المقبل. لا يأخذ الطريق من شقة «فريدولين» في «يوزفشتات»، بالقرب من المستشفى العام، إلى «شرايفوجل-جاسه» أكثر من ربع ساعة؛ وهكذا لم تمضِ فترة طويلة حتى كان «فريدولين» يرتقي الدرج اللولبي سيئ الإضاءة في المنزل القديم، متوجهًا إلى الطابق الثاني. قرع الجرس، وقبل أن يسمع رنينه العتيق لاحظ أن الباب مُوارَب فحسب. وطأ المدخل المعتم المؤدي إلى غرفة المعيشة، ليرى على الفور أنه جاء بعد فوات الأوان. كان مصباح الكيروسين الذي تغطيه غلالة خضراء يتدلى من السقف المنخفض ويُلقي ضوءًا خافتًا على لحاف السرير الذي تمدد تحته، من دون حراك، جسد نحيف. قبع وجه المُتوفَّى في الظلمة، لكن «فريدولين» كان يعرفه حق المعرفة، لذا اعتقد أنه يراه بكل وضوح، نحيلًا، متغضن البشرة، ذا جبهة مرتفعة ولحية شيباء قصيرة، وأذنين بهما شعر أبيض لافت القبح. جلست «ماريانه»، ابنة مستشار القصر الملكي، على طرف الفراش وذراعاها ممتدتان إلى أسفل في تراخٍ، وكأنها تشعر بأقصى درجات الإنهاك. فاحت في الأجواء رائحة الأثاث العتيق، والأدوية، والكيروسين، والمطبخ؛ كما شم أيضًا قليلًا من رائحة ماء الكولونيا والصابون المعطر بالورد، وعلى نحو ما شعر «فريدولين» أيضًا بالرائحة الحلوة الواهية المنبعثة من هذه الفتاة الشاحبة، التي ما زالت شابة لكنها أخذت تذبل ببطء منذ شهور، بل منذ أعوام، خلال قيامها بأشق الأعمال المنزلية، وعنايتها بالمريض عناية مضنية، ساهرةً طوال الليل.

عندما دخل الطبيب، وجهت بصرها إليه، لكنه لم يستطع أن يلمح، في الإضاءة الشحيحة، ما إذا كانت وجنتاها توردتا كما يحدث عادةً عندما يظهر. أرادت النهوض، لكن «فريدولين» أصدر بيده إشارة منعتها من ذلك، فأومأت له تحييه بعينيها الواسعتين المكدرتين. سار إلى رأس السرير، وعلى نحو آلي لمس جبهة المُتوفَّى الذي تمددت ذراعاه فوق لحاف السرير عبر كمي البيجاما المفتوحة،

وببعض الأسف أنزل كتفيه، ووضع يديه في جيبي الفراء، وأخذ يجول ببصره في أنحاء الغرفة، إلى أن استقر أخيراً على «ماريانه». شعرها غزير وأشقر، لكنه جاف، عنقها رشيق ورائع التكوين، لكنه لم يخلُ من تجاعيد، كما ظهر عليه الشحوب، شفتاها نحيلتان، وكأن السبب في ذلك يرجع إلى كلمات كثيرة لم تبُح بها.

قال هامسًا، وقد سيطر عليه الارتباك:

ـ طيب، آنستي العزيزة، بالتأكيد لم يفاجئك الأمر.

مدت يدها إليه، فتناولها حانيًا، وانطلاقًا من شعوره بالواجب سألها عن مسار النوبة الأخيرة القاتلة، فأخبرته بموضوعية واختصار، ثم تحدثت عن الأيام الأخيرة، الجيدة نوعًا ما، التي لم يرَ فيها «فريدولين» المريض. قرَّب «فريدولين» أحد الكراسي، وجلس في مقابل «ماريانه»، وعبرَّ مواسيًا عن ظنه بأن أباها لم يعانِ تقريبًا في الساعات الأخيرة؛ ثم استعلم منها عما إذا كانت قد أبلغت الأقارب. نعم، المدبرة المنزلية في طريقها إلى العم، كما أن السيد الدكتور «روديجر» سيأتي بعد قليل:

ـ خطيبي.

أضافتها وهي تسدد نظرتها إلى جبهة «فريدولين» لا إلى عينيه.

لم تصدر عن «فريدولين» سوى إيماءة. كان قد تقابل في هذا المنزل مع الدكتور «روديجر» مرتين أو ثلاث مرات خلال العام. هذا الشاب النحيف للغاية والشاحب، ذو اللحية القصيرة الشقراء والنظارة، الذي يعمل أستاذًا للتاريخ في جامعة فيينا، أعجبه حقًّا، لكنه لم يُثرِ اهتمامه أكثر من ذلك. بالتأكيد كانت «ماريانه» ستبدو أجمل، هكذا قال لنفسه، لو كانت عشيقته. شعرها كان سيصبح أقل جفافًا، وشفتاها أكثر حمرة وامتلاء. واصل حديث النفس متسائلًا: كم عمرها يا تُرى؟ عندما استدعيتُ لمستشار القصر الملكي أول مرة، قبل ثلاثة أعوام أو أربعة، كانت في الثالثة والعشرين. آنذاك كانت والدتها لا تزال على قيد الحياة.

كانت أكثر مرحًا عندما كانت أمها حية. ألم تتردد لفترة قصيرة على دروس الغناء؟ ستتزوج إذن هذا الأستاذ الجامعي. لماذا تفعل ذلك؟ هي بالتأكيد لا تحبه، ولا يبدو أن لديه مالاً كثيراً. كيف ستكون زيجة كهذه؟ ستكون زيجة مثل آلاف غيرها. ما شأني أنا بها؟ قد لا أراها مرة ثانية بعد اليوم، فلم يعد لديَّ ما أفعله في هذا البيت. آه، كم من أشخاص لم أرهم ثانية قَطُّ، وكانوا أقرب لي منها!

بينما كانت هذه الأفكار تمر برأسه، كانت «ماريانه» قد شرعت تتحدث عن المتُوفىَّ بنوع من الإلحاح، وكأنه بمجرد وفاته قد غدا فجأة إنسانًا غريب الأطوار. أكان حقًّا في الرابعة والخمسين؟ بالطبع، الهموم والإحباطات العديدة، الزوجة التي تعاني دائمًا، كما أن الابن سبب له كثيراً من الهم والغم! ماذا، ألها شقيق؟ مؤكد. لقد أخبرت الدكتور بذلك ذات يوم. يحيا الأخ الآن في مكان ما خارج البلاد، ثمة صورة معلقة في غرفة «ماريانه» رسمها في عمر الخامسة عشرة. كان الأب يتصرف وكأنه لا يرى الصورة مطلقًا. لكنها صورة متقنة. في ظروف أخرى، أكثر ملاءمةً، كان من الممكن أن يتقدم الشقيق في فنه.

يا لانفعالها، هكذا فكر «فريدولين»، ويا لبريق عينيها! حمى؟ ربما. لقد نحلت في الفترة الأخيرة. من المرجح أن تكون مصابة بالتهاب رئوي.

واصلَت التحدث، ولكن بدا له أنها لا تعلم على وجه اليقين إلى مَن تتحدث؛ أو كأنها تناجي نفسها. منذ اثني عشر عامًا هجر شقيقها البيت، نعم، كانت لا تزال طفلة عندما اختفى فجأة. قبل أربع أو خمس سنوات، وفي فترة أعياد الميلاد، تلقوا آخر رسالة منه، من مدينة إيطالية صغيرة. أمر غريب، لقد نسيَت اسمها. هكذا ظلت تتحدث فترة من الوقت عن أشياء من دون اكتراث، ومن دون ضرورة، وتقريبًا بلا رابط، إلى أن صمتت مرة واحدة، وظلت جالسة في مكانها، خرساء، واضعة رأسها بين يديها. أحس «فريدولين» بالتعب، وأكثر من ذلك شعر بالملل، وراح ينتظر على أحر من الجمر أن يأتي أحد، الأقارب مثلًا أو الخطيب. كانت وطأة الصمت في الحجرة ثقيلة. تراءى له أن المتُوفىَّ يصمت معهما؛ ليس لأنه لم يعد يستطيع أن يتحدث، بل إنه يصمت عامدًا وشامتاً.

مع نظرة جانبية وجهها إلى المتُوفىَّ، قال «فريدولين»:

ـ على كل حال، وحسب الأوضاع الآن، آنسة «ماريانه»، عليك ألا تبقي فترة طويلة في هذه الشقة.

ولأنها رفعت رأسها قليلاً، لكن من دون أن تتطلع إلى «فريدولين»، واصل قائلاً:

ـ سيحصل خطيبك قريبًا بالتأكيد على درجة الأستاذية، فالأوضاع في كلية العلوم الإنسانية أفضل في هذه الناحية من الأوضاع لدينا.

تذكر أنه قبل سنوات كان يطمح هو أيضًا إلى مسار أكاديمي، ولكنه اختار في النهاية الممارسة العملية لمهنته لأنه ينزع إلى الحياة المريحة. وفجأة شعر بنفسه أدنى من الدكتور «روديجر» المتميز.

قالت «ماريانه»، من دون أن تتحرك:

ـ في الخريف سننتقل إلى مدينة أخرى. لقد جاءه عرض في جوتينجن.

ـ آه...

ردَّ «فريدولين»، وأراد أن يتوجه إليها بما يشبه التهنئة، غير أن ذلك بدا له غير مناسب في هذه اللحظة وفي هذه الأجواء. ألقى نظرة على النافذة المغلقة، ثم ـ ومن دون أن يستأذن، وكأنه يمارس حقًّا طبيًّا ـ فتحها على مصراعيها، فهب إلى الداخل الهواء الربيعي الذي أمسى أكثر دفئًا، حاملاً معه على ما يبدو شذى رقيقًا من الغابات البعيدة المستيقظة من سُبات الشتاء. عندما التفت ثانية إلى الغرفة، رأى عيني «ماريانه» الشاخصتين إليه وكأنهما تتساءلان. اقترب منها ثم قال:

ـ آمل أن يحسِّن الهواء النقي من حالتكِ. لقد أصبح الجو أكثر دفئًا، وفي الليلة الماضية...

أراد أن يقول: «انطلقنا في العاصفة الثلجية من المرقص إلى المنزل»، غير أنه،

بسرعة، أعاد صياغة الجملة، وأكمل قائلًا:

ـ مساء الأمس كانت الثلوج لا تزال تغطي الشوارع بارتفاع نصف متر.

لم تكد تسمع حرفًا واحدًا مما قاله. اغرورقت عيناها، ونزلت دمعات كبيرة على وجنتيها، ثم أخفت وجهها بين يديها مرة ثانية. وضع يده لاإراديًّا على مفرق شعرها، ومسح جبينها. شعر أن جسدها بدأ يرتعش، راحت تنتحب باطنيًّا، في البداية من دون صوت تقريبًا، ثم علا صوت نحيبها شيئًا فشيئًا، وفي النهاية انطلقت تنتحب من دون رادع. وبحركة واحدة كانت قد انزلقت من الكرسي المبطن، وأقعت أمام قدميه، ثم التفت ذراعاها حول ركبتيه، وضغطت بوجهها عليهما. عندئذٍ تطلعت إليه بعينين واسعتين يُطل منهما حزن متوحش، وهمست له بحرارة:

ـ لا أريد أن أبتعد عن هنا. حتى إذا لم تعُد يومًا، وحتى إذا لم أرَك هنا قَطُّ بعد اليوم، أريد أن أعيش بجوارك.

كان متأثرًا، أكثر منه مندهشًا، فهو كان يعلم طوال الوقت أنها تحبه، أو تتوهم ذلك.

بصوت خافت قال لها:

ـ قفي من فضلك يا «ماريانه».

ثم انحنى عليها، وأنهضها برفق وهو يفكر: بالطبع تلعب الهيستيريا دورًا في ذلك. ثم ألقى نظرة جانبية على الأب الميت. وسأل نفسه: ألا يسمع كل ما قيل؟ ربما هو ميت ظاهريًّا فحسب؟ ربما يكون كل إنسان، في الساعات الأولى بعد احتضاره، ميتًا ظاهريًّا فحسب؟ احتضن «ماريانه»، وفي الوقت نفسه حافظ على بعض المسافة بينه وبينها، وعلى نحو لاإرادي تقريبًا طبع قبلة على جبهتها، لكنه هو نفسه استسخف ذلك بعض الشيء. تذكر بعض التذكر رواية قرأها قبل سنوات، وفيها تقوم إحدى صديقات الأم بإغواء الابن، بل في الحقيقة باغتصاب ذلك الشاب حديث السن، الصبي تقريبًا، على الفراش الذي رقدت

عليه أمه ميتة. في اللحظة ذاتها، من دون أن يعلم السبب، وجد نفسه يفكر في زوجته. شعر في نفسه بمرارة تجاهها، وبحنق خفيف تجاه ذلك السيد في الدنمارك الذي كان يحمل حقيبة السفر الصفراء على درج الفندق. احتضن «ماريانه» بقوة أكبر، لكنه لم يشعر بأي قدر من الإثارة؛ على العكس، لقد تولد داخله نفور خفيف تجاهها عندما استقر بصره على شعرها الجاف الذي فقد بهاءه، وعندما شم الرائحة الضعيفة الحلوة التي صدرت عن ثوبها الذي لم يتعرض إلى الهواء منذ مدة. في تلك اللحظة قُرع الجرس بالخارج، وشعر هو بالخلاص، فقبَّل يد «ماريانه» بسرعة، وكأنه يعبر عن امتنانه، ثم سار ليفتح الباب. كان الواقف عند الباب هو الدكتور «روديجر»، وكان يرتدي معطفًا رماديًّا داكنًا من طراز «هافلوك»، وحذاء رقيقًا واقيًا فوق حذائه، وفي يده مظلة واقية من المطر. كانت ملامح وجهه جادة، ملائمة للظروف. حيا كل رجل الآخر بإيماءة من الرأس، بألفة أكبر مما تسمح به علاقتهما الفعلية. بعد ذلك دخلا إلى الغرفة، وبعد أن ألقى «روديجر» نظرة مرتبكة على المتُوفىَّ عبرَّ لـ«ماريانه» عن مواساته. سار «فريدولين» إلى الحجرة الجانبية حتى يكتب شهادة الوفاة الطبية. زاد من شعلة مصباح الغاز فوق المكتب، فوقع بصره على صورة الضابط المرتدي زيًّا عسكريًّا أبيض، وهو يقفز هابطًا أحد التلال، ملوحًا بسيفه المقوس تجاه عدو غير مرئي. كانت اللوحة في إطار نحيل بلون ذهبي عتيق، ولا تبدو أكثر قيمة من نسخة زيتية متواضعة.

بشهادة الوفاة المكتوبة عاد «فريدولين» إلى الغرفة حيث كان العروسان يجلسان على فراش الأب ويداهما متشابكتان.

دق جرس الباب مرة أخرى، نهض دكتور «روديجر» وذهب ليفتح. في تلك الأثناء أسرَّت إليه «ماريانه»، بصوت لا يكاد يُسمع، ناظرة إلى الأرض:

ـ أحبك.

وبصوت لا يخلو من حنان نطق «فريدولين» باسم «ماريانه»، ولم يقل شيئًا آخر. عاد «روديجر» بصحبة زوج وزوجة متقدمَين في السن، هما عم «ماريانه»

وزوجته. تم تبادل بضع كلمات تناسب المقام، بارتباك يفرضه وجود ميت في الغرفة. بدت الحجرة الصغيرة فجأة وكأنها مزدحمة بالمعزين، فشعر «فريدولين» بأن لا مكان له، لذا استأذن لينصرف، فأوصله «روديجر» حتى الباب، شاعراً بأن عليه أن يقول له بعض كلمات الشكر ومعبراً له عن أمله باللقاء ثانية.

٣

أمام بوابة المنزل، تطلع «فريدولين» إلى النافذة التي فتحها بنفسه قبل قليل؛ كان المصراعان يهتزان اهتزازًا خفيفًا في رياح بشائر الربيع. بدا له الأشخاص الذين تركهم هناك، في الطابق العلوي، غير حقيقيين، كالأشباح، يتساوى في ذلك الأحياء والميت. وبدا هو لنفسه وكأنه نجا؛ لم ينجُ من حدث، بل بالأحرى من سحر كئيب لم يستطع أن يفرض نفوذه عليه. الأثر الوحيد المتبقي من ذلك كان شعورًا غريبًا بعدم الرغبة في العودة إلى المنزل. كانت الثلوج في الشوارع قد ذابت، وإلى اليمين واليسار كُومت أكوام صغيرة من الثلوج ذات لون أبيض متسخ. اهتز الفتيل الغازي في المصابيح، ومن كنيسة قريبة دقت الساعة الحادية عشرة. قرر «فريدولين» أن يقضي، قبل الذهاب إلى الفراش، نصف ساعة في أحد الأركان الهادئة في مقهى بالقرب من بيته. سلك الطريق الذي يقطع حديقة دار البلدية. كان هذا الثنائي العاشق أو ذاك يجلس على المقاعد الخشبية تحت الأشجار، ملتصقين بعضهما ببعض وكأن الربيع قد حلَّ حقًّا، وكأن هذه النسائم الدافئة المخادعة ليست حُبلى بالمخاطر. على طول أحد المقاعد تمدد إنسان مهترئ الثياب إلى حد كبير، وقبعته مضغوطة على جبينه. قال «فريدولين» لنفسه: ماذا لو أيقظته، ومنحته نقودًا من أجل مأوى ليلي؟ وواصل التفكير: لكن بمَ يفيد هذا؟ سينبغي عليَّ عندئذٍ أن أوفر له ملجأ آخر غدًا، وإلا لن يكون للأمر معنى، وفي النهاية، وبسبب صلتي به، سأضع نفسي موضع شبهات يُعاقب عليها القانون. هرول، وكأنه يهرب بأسرع ما يمكن من أي شكل من أشكال المسؤولية والإغواء. وتساءل: لماذا هذا بالتحديد؟ في فيينا وحدها ثمة آلاف من أشباه هذا المسكين. لو استطاع المرء الاهتمام بهم جميعًا، بمصير كل هؤلاء المجهولين! خطر على باله المُتوفَّى الذي تركه لتوه، وببعض الرعب فكر ـ ولم يخلُ تفكيره من الاشمئزاز ـ في أن التحلل والتعفن قد بدآ، وفق القوانين الأبدية، يفعلان فعلهما في الجسد النحيل الممدد تحت الغطاء القطني البني. دخل السرور إلى نفسه لأنه ما زال يحيا، وأن كل هذه الأشياء البشعة ما زالت، على الأرجح، بعيدة عنه؛ نعم، وأنه ما زال في ريعان

شبابه، ولديه امرأة ساحرة لطيفة المعشر، وأن من الممكن أن تكون بحوزته امرأة أخرى أو عدة نساء إذا رغب في ذلك. لكي يحدث ذلك كان بحاجة بالطبع إلى راحة بال أكثر مما ينعم بها الآن؛ تذكر أن عليه في الثامنة صباحًا أن يكون في القسم الذي يعمل به في المستشفى، وأنه سيعود مرضى خصوصيين من الحادية عشرة حتى الواحدة، ومن الثالثة حتى الخامسة عصرًا لا بد أن يكون في العيادة، وأن بعض الزيارات المنزلية للمرضى ستكون في انتظاره في ساعات المساء. على أي حال، من المأمول ألا يُستدعى، على الأقل، في منتصف الليل كما حدث اليوم.

عبرَ ساحة دار البلدية التي كانت تلمع لمعانًا باهتًا وكأنها بحيرة بنية اللون، وسار في اتجاه حي «يوزفشتات» حيث يسكن. من بعيد سمع وقع خطوات خافتة منتظمة، ثم رأى فرقة صغيرة من إحدى روابط الطلاب الذين يرتدون أزياء ذات ألوان معينة تشير إلى توجههم السياسي، عددهم ستة طلاب أو ثمانية، لا يزالون بعيدين نسبيًا، وقد انحرفوا للتو حول ناصية الشارع، ويسيرون في اتجاهه. عندما وصل الشبان إلى بقعة نور من أحد المصابيح، اعتقد أنهم من رابطة «الجرمان الزرق». هو لم ينتمِ يومًا إلى رابطة من الروابط الطلابية، لكنه خاض آنذاك مبارزتين بالسيف. عندما تذكر الفترة الطلابية، خطر على باله أيضًا الشخصان المرتديان الأحمر اللذان اجتذباه ليلة أمس إلى الغرفة الصغيرة، ثم غادراها مسرعَين وعلى نحو غير لائق. كان الطلاب على مقربة كبيرة منه، يتحدثون بصوت عالٍ ويضحكون. ربما يعرف أحدهم من المستشفى؟ ولكن مع هذه الإنارة الواهنة لم يكن ممكنًا التعرف على ملامحهم بوضوح. عليه أن يظل قريبًا جدًا من الجدار حتى لا يصطدم بهم. ها هم قد مروا به، لكن آخرهم ـ شاب طويل يرتدي سترة شتوية طويلة ومفتوحة، وعلى عينه اليسرى رباط ـ بدا أنه يتعمد أن يتأخر مسافة، ثم اصطدم به بكوعه الذي مده جانبًا. لا يمكن أن تكون تلك مصادفة. كيف يجرؤ هذا الشاب! هكذا فكر «فريدولين»، ووقف رغمًا عنه؛ الشيء نفسه فعله الآخر بعد خطوتين، وطوال برهة ظل كل منهما يحدق في عيني الآخر، وبينهما مسافة متوسطة. وفجأة حوَّل «فريدولين» وجهه وواصل سيره. سمع قهقهة قصيرة خلفه، فكاد يستدير ثانية ليوقف الفتى عند حده، غير

أنه شعر بخفقان غريب في القلب ـ مثلما حدث مرة قبل ١٢ أو ١٤ عامًا، عندما سمع قرعًا شديدًا على بابه بينما كانت لديه تلك الشابة اللطيفة، التي كانت تحب دائمًا أن تثرثر عن عريس يعيش بعيدًا، عريس ربما لم يكن له وجود أساسًا؛ وفي حقيقة الأمر لم يكن الذي قرع الباب بهذه القوة سوى ساعي البريد. كما حدث في ذلك اليوم، شعر الآن بقلبه يخفق. ما هذا؟ هكذا تساءل مغتاظًا، ولاحظ أن ركبتيه ترتعشان قليلًا. أهو جُبن؟ ردَّ على نفسه: هراء. أعليَّ أن أشتبك مع طالب مخمور، وأنا رجل في الخامسة والثلاثين من العمر، طبيب عام، متزوج، وأب لطفلة! تحديد موعد للمبارزة! شهود! مبارزة! وفي النهاية، طعنة في الذراع بسبب هذا الاحتكاك الجسدي السخيف؟ ثم العجز عن ممارسة المهنة لأسابيع؟ أو اقتلاع عين؟ أو تسمم في الدم؟ وبعد ثمانية أيام تتطور الحالة لأكون مثل السيد الممدد في «شرايفوجل-جاسه» تحت اللحاف القطني بني اللون! أهو جُبن؟ لقد بارز بالسيف ثلاث مرات، وكان مستعدًّا للمبارزة بالمسدس ذات مرة، ومن دون تدخل منه سُوِّي الموضوع سلميًّا آنذاك. ومهنته! إن الأخطار تحيط به من كل الجوانب، وفي كل لحظة. المرء ينسى ذلك فحسب. كم من الوقت مَرَّ على تلك الواقعة عندما سعل في وجهه طفل مريض بالدفتيريا؟ ثلاثة أيام أو أربعة، لا أكثر. كان ذلك على العموم أكثر خطورة من مبارزة تافهة كهذه. ولم يعد حتى يفكر في الأمر. عمومًا، إذا قابل ذلك الشاب مرة أخرى، فما زال بإمكانه أن يسوي الأمر. ليس لزامًا عليه مطلقًا، وهو في طريق عودته من عيادة مريض، أو في طريقه لعيادة مريض ـ هذه الحالة قد تحدث أيضًا ـ كلَّا، ليس لزامًا عليه حقًّا أن يرد على احتكاك جسدي أحمق من طالب كهذا. لو كان قابل ذلك الشاب الدنماركي، مثلًا، الذي كانت «ألبرتينه»... كلَّا، كلَّا، ما هذه الأفكار التي تتوارد على ذهنه؟ في الحقيقة، الأمر لن يختلف كثيراً لو كانت عشيقته. الأمر أسوأ من ذلك. فليأتِ الآن لمقابلته! أوه، يا للسعادة العظيمة التي سيشعر بها إذا وقف أمامه في غابة، في مكان يخلو من الأشجار، ليصوب فوهة مسدسٍ على الجبهة التي ينسدل عليها الشعر الأشقر الناعم!

ألفى نفسه، فجأة ـ وقد سار أبعد من اللازم ـ في حارة ضيقة لم يكن بها سوى عدد قليل من العاهرات البائسات اللائي يطُفنها ليلًا لاصطياد زبائن. كالأشباح،

هكذا قال لنفسه. وأمسى الطلاب ذوو القبعات الزرقاء أيضًا، فجأة، كالأشباح في ذاكرته؛ وكذلك «ماريانه»، وخطيبها، والعم والعمة، الذين تخيلهم يقفون كلهم الآن في صف، يدًا في يد، حول فراش المستشار الملكي العجوز الميت؛ وكذلك «ألبرتينه»، التي تراءت له في الخيال مستغرقة في النوم، وقد التفت ذراعاها تحت رقبتها؛ وحتى طفلته التي ترقد متكورة في مهدها النحاسي الصغير المطلي بالأبيض، والآنسة ذات الوجنتين المتوردتين والشامة على صدغها الأيسر؛ كل هؤلاء باتوا كائنات شبحية تمامًا. ومع أن هذا الشعور أخافه قليلاً، فقد وجد فيه، في الوقت نفسه، شيئًا مهدئًا بدا كأنه يحرره من كل مسؤولياته، نعم، بل ينتزعه من أي علاقة إنسانية.

طلبت منه إحدى الفتيات المتجولات الذهاب معها. كانت فتاة رقيقة، بشفتين ملونتين بالأحمر، لا تزال شابة غضة، شاحبة للغاية. قال لنفسه: قد ينتهي ذلك بالموت أيضًا، فمهلاً! أهو الجبن أيضًا؟ في الحقيقة نعم. سمع خطواتها، ثم صوتها خلفه:

ـ ألا تريد أن تأتي معي يا دكتور؟

لاإراديًّا التفت إلى الوراء، وسألها:

ـ من أين تعرفينني؟

ـ أنا لا أعرفك، ولكنهم كلهم دكاترة في هذا الحي.

منذ أن كان بالمدرسة الثانوية لم يتردد قَطُّ على امرأة كهذه. هل ارتدَّ فجأة إلى سنوات صباه حتى تثيره هذه الفتاة؟ تذكر أحد معارفه العابرين، شابًّا أنيقًا يقولون عنه إن حظه مع النساء أسطوري، جلس معه في ملهى ليلي عندما كان طالبًا بعد أن خرجا من حفلة راقصة، ثم قال له قبل أن ينسحب مع إحدى الزائرات المحترفات، وبعد أن رأى نظرة «فريدولين» المتعجبة:

ـ تبقى مثل هذه العلاقة أكثر العلاقات راحة، كما أنها ليست أسوأها.

سألها «فريدولين» عن اسمها، فردت بلهجة فييناوية:

ـ وماذا سيكون اسمي؟ «ميتسي»، طبعًا.

كانت قد أدارت المفتاح في بوابة المنزل، ثم دخلت إلى الممر وانتظرت أن يتبعها «فريدولين». وعندما رأته مترددًا، لاحقته بالقول:

ـ بسرعة!

وجد نفسه فجأة يقف بجانبها. انغلقت البوابة خلفه، فأقفلتها بالمفتاح، وأشعلت شمعة صغيرة، منيرةً الطريق أمامه. تساءل صامتًا: هل جُننتُ؟ لن ألمسها بالطبع.

كان القنديل مشتعلًا في غرفتها، فأدارت الفتيل لتزيد الإضاءة. غرفة تبعث على الراحة للغاية، مرتبة ترتيبًا لطيفًا، وتفوح منها رائحة أزكى بكثير من الرائحة السائدة في بيت «ماريانه» مثلًا. بالطبع: لم يرقد هنا رجل طاعن في السن مريضًا طوال أشهر. ابتسمت الفتاة، واقتربت من دون إلحاح من «فريدولين»، الذي صدها برفق. عندئذٍ أشارت إلى كرسي هزاز، فغاص فيه بسرور.

قالت له:

ـ أنت بالتأكيد متعب جدًّا.

أومأ بالإيجاب. فردت وهي تتعرى من دون تعجل:

ـ مفهوم، رجل مثلك مشغول طوال اليوم. الواحدة منا حياتها أسهل.

لاحظ أنها لا تضع على شفتيها أي طلاء، بل إن شفتيها اكتسبتا لونًا أحمر طبيعيًّا، فقال لها ذلك مجاملًا. ردت متسائلة:

ـ ولماذا أضع طلاء؟ ما عمري في رأيك؟

قال «فريدولين» محدسًا:

ـ عشرون؟

أجابته:

ـ سبعة عشر.

ثم جلست على حجره، ولفَّت ذراعها مثل طفل حول عنقه.

قال لنفسه: مَن في العالم كله يظن أنني الآن أجلس في هذه الحجرة؟ وهل كنت أنا أعتبر ذلك ممكنًا قبل ساعة، لا، قبل عشر دقائق؟ ولماذا؟ لماذا؟ بشفتيها راحت تبحث عن شفتيه، لكنه حرك رأسه إلى الخلف، فنظرت إليه بعينين واسعتين يطل منهما شيء من الحزن، ثم هبطت من على حجره. كاد يشعر بالأسف لذلك، ففي التفافها حوله كان هناك كثير من الحنان المُعَزِّي.

تناولت معطفًا منزليًّا أحمر كان معلقًا على مسند الفراش المفتوح، وانزلقت فيه، ثم ضغطت ذراعيها على صدرها، وبهذا غطت قوامها كله.

ـ هل يوافقك هذا الآن؟

وجهت إليه السؤال من دون تهكم، بل بحياء، وكأنها تبذل جهدًا لكي تفهمه. لم يكد يجد كلمات للرد عليها.

ثم قال لها:

ـ ظنك في محله، أنا فعلًا متعب، وأنا مرتاح جدًّا لجلوسي هنا على الكرسي الهزاز والإصغاء إليك فحسب. صوتك لطيف ورقيق. لا عليك سوى الحديث معي، احكي لي شيئًا.

جلست على السرير وهزت رأسها، وقالت بصوت خافت:

ـ أنت تشعر بالخوف.

ثم أضافت لنفسها، بصوت غير مسموع تقريبًا:

ـ خسارة!

دفعت هذه الكلمة الأخيرة بموجة ساخنة من الدماء في عروقه. اقترب منها وأراد أن يحتضنها، ثم قال لها إنها تتمتع بثقته الكاملة، وكان يقول الحقيقة فعلًا. جذبها إليه، وراح يداعبها كما يداعب فتاة، كما يداعب محبوبته. قاومته، فشعر بالخجل، وفي النهاية كفَّ عما يفعله. قالت له:

ـ لا يعرف المرء، ذات مرة لا بد أن يحدث شيء. لديكَ الحق تمامًا عندما تشعر بالخوف. وإذا حدث شيء، فسوف تلعنني.

رفضت الأوراق النقدية التي عرضها عليها على نحو حاسم جعله يتوقف عن الإلحاح عليها. لفَّت وشاحًا صوفيًّا أزرق حول عنقها، وأوقدت شمعة، وأنارت طريقه، مرافقةً إياه وهو يهبط الدرج، ثم فتحت له البوابة، قائلة:

ـ سأبقى اليوم في البيت.

تناول يدها وطبع قبلة عليها بحركة لاإرادية. تطلعت إليه مندهشة، بل مرعوبة تقريبًا، ثم ضحكت بارتباك وسعادة:

ـ تعاملني كأنني آنسة!

انغلق القفل وراءه، وبنظرة سريعة طبع «فريدولين» رقم المنزل في ذاكرته، لكي يستطيع في اليوم التالي إرسال نبيذ وبعض المقبلات لهذه الفتاة المسكينة اللطيفة.

٤

في تلك الأثناء عاودت درجة الحرارة ارتفاعها بعض الشيء. حملت الرياح المعتدلة إلى الحارة الضيقة شذى المروج الندية، وربيع الجبال البعيد. إلى أين الآن؟ هكذا تساءل «فريدولين»، وكأنه ليس من البديهي أن يذهب أخيراً إلى بيته حتى ينام. لكنه لم يستطع أن يحسم أمره ليفعل ذلك. منذ ذلك اللقاء المثير للاشمئزاز مع الطلاب الجرمان شعر بنفسه مثل مشرد، مثل منبوذ... أم منذ اعتراف «ماريانه»؟ كلَّا، فترة أطول من ذلك: منذ الحديث المسائي مع «ألبرتينه» وهو يشعر بنفسه يبتعد تدريجيًّا عن المنطقة المألوفة في وجوده، مقتربًا من عالم آخر، عالم بعيد، غريب.

راح يتمشى طولًا وعرضًا في الشوارع الليلية، معَرضًا جبهته للرياح الدافئة الرقيقة، وفي النهاية، بخطوة حاسمة، وكأنه وصل إلى الهدف الذي بحث عنه طويلًا، دخل إلى مقهى بائس، مقهى فييناوي على الطراز القديم، مريح، لكنه ليس واسعًا، ومُضاء إضاءة متوسطة، وفي هذه الساعة المتأخرة لم يكن به إلا زوار قلائل.

في أحد الأركان كان ثلاثة رجال يلعبون الورق. الساقي، الذي كان يتابعهم، ساعد «فريدولين» في خلع الفراء، ثم سجل طلبه، ووضع أمامه على المائدة مجلات مصورة وصحف المساء. شعر «فريدولين» بالطمأنينة، وبدأ يتصفح الجرائد تصفحًا عابراً. هنا وهناك كان بصره يتمهل. في مدينة ما من مدن منطقة بوهيميا نُزعت لافتات الشوارع المكتوبة بالألمانية. في القسطنطينية عُقد مؤتمر بخصوص بناء خط سكك حديدية في آسيا الصغرى، سيشارك فيه أيضًا اللورد «كرانفورد». أشهرت شركة «بنيس وفاينجروبر» إفلاسها. بدافع الغيرة اعتدت العاهرة «أنَّا تيجر» بحمض الكبريتيك على صديقتها «هيرمينه دروبيتسكي». مساء اليوم في مسرح «قاعات صوفي» يقيمون مأدبة من أسماك الرنجة(1). قامت فتاة، واسمها «ماري ب.»، وتسكن في ٢٨ «شونبرونر هاوبتشتراسه»، بتسميم نفسها باستخدام الزئبق. كل هذه الوقائع اليومية الجافة، سواء كانت

تافهة أو حزينة، كان لها على «فريدولين» وقع مهدئ ومبدد للأوهام. شعر بالأسف من أجل الفتاة «ماري ب.»؛ زئبق، يا للغباء! في هذه الثانية، بينما يجلس هو مرتاحًا في المقهى، وتنام «ألبرتينه» هادئة وقد التفت ذراعاها تحت رقبتها، وبينما المستشار الملكي قد تجاوز كل المعاناة الأرضية، فإن «ماري ب.»، ٢٨ «شونبرونر هاوبتشتراسه»، كانت تتلوى، متألمة ألماً لا معنى له.

رفع وجهه من الصحيفة. رأى من المائدة المقابلة عينين تنظران إليه. هل كان ذلك ممكنًا؟ «ناختيجال»؟ لقد تعرف على «فريدولين»، فرفع ذراعيه مبتهجًا، وسار في اتجاهه؛ رجل طويل، عريض نسبيًّا، يكاد يكون ضخماً، وما زال شاباًّ، شعره طويل ـ أجعد بعض الشيء، أشقر اللون، بدأ الشيب يغزوه ـ وله شارب أشقر هابط على الشفة العليا على الطريقة البولندية. كان يرتدي معطفاً رماديًّا مفتوحًا من طراز «هافلوك»، وتحته بذلة «فراك» عليها بعض البقع الدهنية، وقميصًا مكرمشًا به ثلاثة أزرار من الماس الزائف، وياقة مجعدة، ورباط عنق مهترًّا من الحرير الأبيض. كان جفناه أحمرين، وكأنه قضى ليالي عديدة ساهراً، لكن العينين لهما بريق حيوي أزرق.

صاح «فريدولين»:

ـ أنت في فيينا، يا «ناختيجال»؟!

رد «ناختيجال» بلكنة بولندية لينة، يشوبها تنغيم يهودي:

ـ ألا تعلم ذلك؟ إنني مشهور جدًّا.

قهقه بصوت عالٍ وبطيبة، ثم جلس أمام «فريدولين»، الذي سأله:

ـ ماذا؟ هل أصبحت سرًّا أستاذًا في الجراحة؟

جلجلت ضحكة «ناختيجال» بصوت أعلى:

ـ ألم تسمعني؟ للتو؟

ـ أسمعك؟ كيف؟ آآه!

الآن أدرك «فريدولين» أنه سمع عند دخوله، بل قبل ذلك عندما اقترب من المقهى، أنغام بيانو تتصاعد من أعماق قبو ما.

ـ أنت العازف إذن؟

ضحك «ناختيجال» مجيبًا:

ـ ومَن غيري؟

أومأ «فريدولين». بالطبع؛ لقد شعر على الفور بأنه يعرف هذه الضربات القوية المميزة على البيانو، هذه النغمات الغريبة، المتعسفة وإن كانت متناسقة، والصادرة عن اليد اليسرى.

ـ إذن، لقد تفرغت لذلك تمامًا؟

تذكر أن «ناختيجال» تخلى عن دراسة الطب نهائيًّا بعد الامتحان الثاني في علم الحيوان، الذي نجح فيه لكن متأخرًا سبع سنوات. مع ذلك ظل فترة طويلة يتنقل بين المستشفى وقاعة التشريح والمعمل وقاعات المحاضرات، حيث كان برأسه الأشقر ـ رأس الفنان ـ وياقته المجعدة دائمًا، ورباط عنقه المهتز الذي كان أبيض في الأيام الخوالي، يمثل شخصية لافتة للأنظار، شخصية شعبية، بالمعنى المرح للكلمة، شخصية محبوبة ليس فقط لدى الزملاء، بل أيضًا عند بعض الأساتذة. هو ابن صاحب محل براندي يهودي في مدينة بولندية صغيرة ونائية، هجرها وجاء إلى فيينا لدراسة الطب. المساعدات القليلة من الأهل لم تكن في البداية تستحق الذكر، ثم ما لبثت أن انقطعت كليةً، لكن ذلك لم يمنعه من مواصلة الظهور في حانة «ريدهوف» والجلوس على المائدة التي اعتاد بعض طلاب الطب، ومنهم «فريدولين»، أن يجلسوا إليها. ابتداء من وقت معين صار يتناوب على دفع حساب مشروباته في كل مرة زميل مختلف من الزملاء الموسرين. كما كان يحصل أحيانًا على ملابس كهدية، ويتقبلها بسرور وبلا كبرياء زائفة. كان قد تعلم أساسيات العزف على البيانو في مدينته الصغيرة لدى عازف رمت به الأقدار هناك، وكطالب في كلية الطب في فيينا صار يتردد

في الوقت نفسه على الكونسرفاتوار، ويُقال إنهم اعتبروه هناك موهبة واعدة في العزف على البيانو. ولكن حتى في ذلك المجال لم يكن جاداً ومجتهداً بما يكفي حتى يواصل استكمال مهاراته، وسرعان ما اكتفى تماماً بنجاحاته الموسيقية في دائرة المعارف، أو بالأحرى اكتفى بالمتعة التي يسببها لهم بعزفه على البيانو. عمل لفترة عازف بيانو في مدرسة من مدارس الرقص بإحدى الضواحي. حاول الزملاء بالجامعة وندماء الشراب أن يتوسطوا له لكي يعمل بالصفة نفسها في أماكن أفضل، لكنه كان عندئذٍ لا يعزف إلا ما يحلو له وللمدة التي تحلو له، ويدخل في أحاديث مع السيدات الشابات، وهي أحاديث لم يخضها دائماً بنية طيبة، كما أنه كان يعبُّ من الخمر أكثر مما يتحمل. ذات يوم عزف في بيت مدير بنك ليرقص الحاضرون على موسيقاه. قبل منتصف الليل كان، بملاحظاته الغرامية المكشوفة، قد سبب الحرج للفتيات الراقصات بجواره، والضيق لدى رجالهن، وعندئذٍ خطر على باله أن يعزف رقصة فرنسية هوجاء معروفة باسم «كانكان»، وعلى أنغامها غنى بصوته «الباس» الهائل مقطعاً له أكثر من مغزى. منعه مدير البنك، محتداً، من المواصلة. وكأن صدر «ناختيجال» امتلأ بالمرح والبهجة، فنهض وعانق المدير، الذي راح يفح ساخطاً، ثم رمى عازف البيانو بكلمة سباب شائعة في هذا البلد، مع أن المدير نفسه يهودي، فرد عليه «ناختيجال» على الفور بصفعة مدوية؛ وهكذا بدا أن عمله في البيوت الراقية قد انتهى نهائياً. في الدوائر المقربة، كان يسلك سلوكاً لائقاً في العموم، وإن كان الحاضرون حتى في تلك المناسبات يجدون أنفسهم أحياناً، مع تقدم الوقت، مجبرين على إخراجه بالقوة من الحانة. لكن في الصباح التالي كان كل الحاضرين يصفحون عن مثل هذه الحوادث وينسونها. وذات يوم ـ كان زملاؤه قد أنهوا جميعاً دراستهم ـ اختفى من المدينة من دون وداع. في الشهور القليلة التالية وصلتهم بطاقات بها تحياته من عدة مدن روسية وبولندية. وذات مرة، ومن غير أي شرح أو تفسير، وصلت إلى «فريدولين» ـ الذي كان يكن له دائماً محبة خاصة ـ ليس فقط تحية ذكرته بوجود «ناختيجال»، بل أيضاً رجاء منه بأن يقرضه مبلغاً متوسطاً من المال. أرسل «فريدولين» له المبلغ بلا تأخير، من دون أن يحصل يوماً على كلمة شكر من «ناختيجال»، أو رسالة تضم أخباره.

لكن في هذه اللحظة، في الواحدة إلا الربع صباحًا، وبعد ثماني سنوات، أصر «ناختيجال» على تعويض ما فاته في الحال، فأخرج العدد الصحيح من الأوراق النقدية من حافظة نقوده المهترئة، التي كانت ـ بالمناسبة ـ ممتلئة إلى حدٍّ ما، فقبِلَ «فريدولين» النقود بضمير مستريح...

قال له «فريدولين» مبتسمًا، وكأنه يهدئ نفسه:

ـ حالتك جيدة إذن.

رد «ناختيجال»:

ـ ليس لديَّ سبب للشكوى.

ثم وضع يده على ذراع «فريدولين» قائلًا:

ـ ولكن قل لي، ما الذي أتى بك إلى هنا في منتصف الليل؟

فسر له «فريدولين» وجوده في هذه الساعة المتأخرة بالاحتياج القوي الذي شعر به لتناول فنجان من القهوة بعد زيارة ليلية لمريض؛ ولم يقل له ـ من دون أن يعرف لماذا ـ إنه لم يقابل مريضه حيًّا. ثم تحدث بشكل عام عن نشاطه الطبي في المستشفى والعيادة الخاصة، وذكر أنه متزوج، وسعيد في زواجه، وأب لفتاة في السادسة من عمرها.

ثم حان دور «ناختيجال» في الحديث. كان ظن «فريدولين» صحيحًا، لقد تنقل عبر كل تلك السنوات كعازف بيانو بين مختلف المدن البولندية والرومانية والصربية والبلغارية، ولديه في ليمبرج امرأة وأربعة أطفال؛ وضحك عاليًا، وكأن من المضحك للغاية أن يكون لديه أربعة أطفال، وكلهم في ليمبرج، وكلهم من المرأة نفسها. انتقل منذ الخريف الماضي للحياة في فيينا مرة أخرى. كان الفشل الفوري مصير مسرح المنوعات الذي عمل لديه، لذا يعزف في الوقت الحالي في مختلف الحانات والمطاعم، حسب الأحوال، وفي بعض الأحيان يعزف في مكانين أو ثلاثة في الليلة ذاتها، في هذا المكان على سبيل المثال، في القبو؛

مكان ليس بالراقي، كما أضاف، بل في الحقيقة ملعب للبولينج، وفيما يخص الجمهور...

ـ ولكن إذا كان على المرء أن يعول زوجته وأربعة أطفال في ليمبرج...

وضحك ثانية، لكن ليس بالبهجة التي ضحك بها في المرة السابقة. ثم أضاف بسرعة:

ـ كما أنني أقوم ببعض الأعمال الخاصة أحيانًا.

وعندما لاحظ ابتسامة على وجه «فريدولين» وكأنه تذكر شيئًا، أضاف:

ـ ليس لدى مديري البنوك وأمثالهم، لا، في كل الدوائر الممكنة، الدوائر الكبيرة أيضًا، العمومية والسرية.

ـ السرية؟

نظر «ناختيجال» أمامه نظرة خبيثة ماكرة:

ـ سيأتون حالًا لإحضاري.

ـ ماذا، ستعزف مرة ثانية اليوم؟

ـ نعم، فهناك لا يبدأ العزف قبل الثانية.

قال «فريدولين»:

ـ هذا شيء راقٍ جدًّا.

ضحك «ناختيجال»، وبسرعة عاودته الجدية:

ـ نعم ولا.

كرر «فريدولين» بفضول:

ـ نعم ولا؟

انحنى «ناختيجال» على المائدة في اتجاهه:

ـ سأعزف اليوم في أحد المنازل، ولكن مَن هو المالك؟ لا أعرف.

فسأله «فريدولين» باهتمام متزايد:

ـ أنت تعزف هناك إذن للمرة الأولى؟

ـ لا، للمرة الثالثة. ولكن من المرجح أن أعزف في منزل آخر.

ـ لا أفهم ذلك.

قال «ناختيجال» ضاحكًا:

ـ ولا أنا. والأفضل ألا تسأل.

ـ هممم.

ـ ولكنك مخطئ. ليس ما تظنه. لقد رأيتُ الكثير، لن تصدقني، المرء يرى الكثير في مثل تلك المدن الصغيرة، وخاصة في رومانيا. ولكن هنا...

أزاح الستارة الصفراء أمام النافذة إلى الوراء قليلًا، ونظر إلى الشارع، ثم قال وكأنه يكلم نفسه:

ـ لم تأتِ بعد.

ثم أضاف، موضحًا لـ«فريدولين»:

ـ أقصد العربة. هناك دائمًا عربة لتوصيلي، ودائمًا عربة مختلفة.

ردَّ «فريدولين» ببرود:

ـ أنت تثير فضولي يا «ناختيجال».

قال «ناختيجال»، بعد قليل من التردد:

ـ اسمع، إذا كنت أستطيع أن أمنح إنسانًا واحدًا في هذا العالم شيئًا... ولكن كيف السبيل إلى ذلك؟

ثم أضاف فجأة:

ـ ألديك شجاعة؟

ردَّ «فريدولين» بنبرة عضو رابطة طلابية شعر بالإهانة:

ـ سؤال غريب.

ـ لا أقصد بهذا المعنى.

ـ وماذا تقصد إذن؟ لماذا يحتاج المرء إلى شجاعة خاصة في مثل هذه الحفلات؟ ماذا يمكن أن يحدث؟

وأطلق ضحكة قصيرة محتقِرة.

ـ لا يمكن أن يحدث لي شيء. أقصى شيء أن يكون اليوم هو آخر مرة... ولكن ربما تكون هي آخر مرة على كل حال.

وصمت، ونظر مرة أخرى إلى الخارج عبر المسافة المفتوحة من الستارة.

ـ إذن؟

سأله «ناختيجال» وكأنه يحلم:

ـ ماذا تعني؟

ـ أكمل الحكاية. بما أنك بدأت... حفلة سرية؟ حلقة مغلقة من الناس؟ ضيوف مدعوون؟

ـ لا أعرف. كانوا ثلاثين شخصًا في إحدى المرات الأخيرة، في المرة الأولى كانوا ستة عشر فقط.

ـ حفلة راقصة؟

ـ بالطبع حفلة راقصة.

بدا وكأنه نادم على التحدث من الأساس.

ـ وأنت تعزف موسيقى من أجل الرقص؟

ـ لماذا من أجل الرقص؟ أنا لا أعرف لماذا أعزف. فعلًا، لا أعرف. أعزف، وأعزف... بعينين مربوطتين.

ـ يا عندليب، يا عندليب، أي أغنية تغني![2]

تنهد «ناختيجال» بصوت خافت:

ـ للأسف ليس بعينين مربوطتين تمامًا. لا يعني هذا أني لا أرى أي شيء. عبر المنديل الحريري على عينيَّ أرى في المرآة...

وصمت ثانية.

فواصَل «فريدولين» بنبرة محتقرة نافدة الصبر، وفي الوقت نفسه كان يشعر بأنه مستثار على نحو غريب:

ـ باختصار: عاهرات عاريات.

ردَّ «ناختيجال» وكأنه يشعر بالإهانة:

ـ لا تقل «عاهرات»! أنت لم ترَ في حياتك نساء مثل هؤلاء.

تنحنح «فريدولين» قليلًا. ثم سأل على نحو عابر:

ـ وكم يكلف الدخول؟

ـ أتعني تذاكر ومثل هذه الأشياء؟ هه، يا لسذاجتك!

بشفتين مضمومتين، سأله «فريدولين» وهو ينقر على المائدة:

ـ وكيف يمكن للمرء الدخول إذن؟

ـ لا بد أن تعرف كلمة سر، وهي تتغير في كل مرة.

ـ وكلمة اليوم؟

ـ لا أعرف بعد. الكلمة أعرفها من الحوذي.

ـ خذني معك، يا «ناختيجال».

ـ مستحيل، هذا أمر خطير جدًّا.

ـ منذ دقيقة واحدة أعلنت نيتك أن تمنحني شيئًا. الأمر ممكن بالتأكيد.

سدد له «ناختيجال» نظرة فاحصة:

ـ بهيئتك الحالية لا يمكنك الدخول على أي حال، فكلهم مقنعون، السادة والسيدات. هل لديك قناع أو شيء كهذا؟ مستحيل. ربما المرة المقبلة. سأفكر في وسيلة.

أصاخ السمع، ثم نظر ثانية عبر فتحة الستارة إلى الشارع، وقال وهو يأخذ نفسًا:

ـ ها هي العربة. وداعًا.

تشبث «فريدولين» بذراعه قائلًا:

ـ لن تهرب مني. ستأخذني معك.

ـ ولكن، يا زميلي...

ـ دع بقية الأشياء لي. أعرف أن الأمر «خطير»، وربما لهذا تحديدًا يجذبني.

ـ ولكني قلت لك: من دون زي وقناع...

ـ هناك محلات لاستعارة الأقنعة.

ـ في الساعة الواحدة بعد منتصف الليل!

ـ اسمعني يا «ناختيجال». على ناصية شارع «فيكنبورج-شتراسه» هناك محل كهذا. إنني أمر أمام نافذة العرض عدة مرات في اليوم.

وبسرعة، وبانفعال متزايد، أضاف:

ـ انتظرني هنا لربع ساعة يا «ناختيجال»، سأجرب حظي هناك. من المرجح أن صاحب محل الإعارة يسكن في المنزل نفسه. فإذا لم يكن، فسأتخلى عن الأمر. على القدر أن يحسم ذلك. هناك مقهى في المنزل عينه، مقهى «فيندوبونا» على ما أعتقد. ستقول للحوذي إنك نسيت في المقهى شيئًا ما، وستدخل، وسأكون منتظرًا بالقرب من الباب، وستقول لي بسرعة كلمة السر، وتعود إلى عربتك لتركبها. وأنا، إذا نجحت في الحصول على زي، سآخذ بسرعة عربة أخرى، وأنطلق وراءك. وسنرى ما يحدث بعد ذلك. كلمة شرف يا «ناختيجال»: المخاطرة التي تتحملها، سأقتسمها معك في كل الأحوال.

حاول «ناختيجال» عدة مرات أن يقاطع «فريدولين»، لكن من دون جدوى. ألقى «فريدولين» ثمن المشروبات على المائدة ومعه بقشيش ضخم، بدا له مناسبًا لهذه الليلة، ثم انصرف. كانت عربة مغلقة تقف بالخارج، وفي مقدمتها جلس الحوذي بلا حراك، كل ملابسه سوداء، وعلى رأسه قبعة عالية. قال «فريدولين» لنفسه: تبدو العربة كأنها عربة موتى. بعد عدة دقائق من السير السريع، وصل إلى المنزل المنشود على الناصية، قرع الجرس واستعلم لدى البواب عما إذا كان «جيبيزر»، صاحب محل إعارة الأقنعة، يسكن هنا، وراح يأمل في صمت ألا تكون تلك هي الحال. لكن «جيبيزر» كان يسكن حقًّا هنا، في الطابق الواقع تحت محل الإعارة، بل إن البواب لم يبدِ حتى اندهاشًا أو تعجبًا من الزيارة المتأخرة، بل قال ـ بعد أن أبهجه البقشيش المعتبر الذي نفحه إياه «فريدولين» ـ إنه ليس من المستغرب خلال فترة الكرنفال أن يأتي أناس في مثل هذه الساعة المتأخرة لاستعارة زي من الأزياء. ظل ينير له الطريق بالشمعة من أسفل إلى أن ضغط «فريدولين» على جرس الطابق الأول. فتح السيد «جيبيزر» الباب بنفسه،

وكأنه كان يقف خلفه منتظراً. كان نحيلًا، بلا لحية، وأقرع، يرتدي بيجاما مزهرة عتيقة الطراز، وعلى رأسه طاقية تركية يتدلى منها شريط، بدا بها مثل عجوز مثير للضحك على خشبة أحد المسارح. أخبره «فريدولين» بما يريد وذكر أن السعر لا يلعب أي دور، فردَّ السيد «جيبيزر» في نبرة تكاد تنم عن الاحتقار:

ـ أنا لا أطلب أكثر من حقي.

قاد «فريدولين» عبر الدرج اللولبي إلى المخزن بالأعلى. فاحت في المكان رائحة الحرير والمخمل والعطر والغبار والزهور الجافة؛ من الظلام السابح برقت أشياء فضية وحمراء؛ وفجأة لمعت مجموعة كبيرة من المصابيح الصغيرة بين الخزانات المفتوحة في ممر طويل، ضيق، تلاشى في الظلام الممتد خلفه. عُلقت إلى اليمين واليسار أزياء من مختلف الأشكال والأنواع؛ في جانبٍ ملابس فرسان، وعمال مناجم، وفلاحين، وصيادين، وعلماء، ومهرجين، وأزياء شرقية، وعلى الجانب الآخر ملابس لحريم القصر، وفارسات، وفلاحات، ووصيفات، وملكات الليل كما يظهرن في الأوبرا. فوق الأزياء رأى أغطية الرأس المناسبة لها، شعر «فريدولين» وكأنه يخطو في طريق يتدلى على جانبيه مشنوقون على وشك أن يطلبوا الرقص بعضهم من بعض. سار السيد «جيبيزر» خلفه، وسأله:

ـ هل لدى السيد رغبة خاصة؟ «لويس الرابع عشر»؟ زي من عصر الثورة الفرنسية؟ زي ألماني قديم؟

ـ أحتاج إلى زي راهب، داكن اللون، وقناع أسود، ولا شيء غير ذلك.

في هذه اللحظة سُمعت من نهاية الممر قرقعة زجاجية. سدد «فريدولين» نظرة مرعوبة على وجه صاحب محل الأقنعة، وكأن التاجر ملزم بتفسير ذلك فوراً. أما «جيبيزر» فقد تجمد في مكانه، وراح يتلمس زرًّا كهربائيًّا مختبئًا في مكان ما، وعلى الفور غرق الممر حتى نهايته في ضوء باهر، وهناك ظهرت مائدة مفروشة، عليها أطباق وكؤوس وزجاجات. ومن كرسيين إلى اليمين واليسار نهض قاضيان يرتديان الروب الأحمر، بينما اختفى كائن رقيق بهي في اللحظة ذاتها. بخطوات واسعة اندفع «جيبيزر» نحوهم، ثم مد يده إلى الطاولة وأمسك

بباروكة بيضاء، وفي الوقت نفسه نهضت فتاة جذابة صغيرة للغاية، طفلة تقريبًا، ترتدي زي المهرج مع جوربين أبيضين من الحرير، وركضت بحركات ملتوية عبر الممر إلى أن وصلت إلى «فريدولين»، الذي وجد نفسه مضطرًا لتلقفها بين ذراعيه. ترك «جيبيزر» الباروكة البيضاء تسقط على الطاولة، وأمسك يمناه ويسراه القاضيين من ثنيات الروب. في الوقت نفسه صاح في وجه «فريدولين»:

ـ سيدي، أمسك بهذه الفتاة.

التصقت الصغيرة بـ«فريدولين»، وكأن عليه أن يحميها. وجهها الصغير النحيل مكسو بمسحوق أبيض، ومغطى بقطع من اللاصق التجميلي، ومن نهديها الرقيقين تصاعدت رائحة الورد والمسحوق؛ ومن عينيها رأى ابتسامة ماكرة شَبِقة.

صاح «جيبيزر»:

ـ أيها السيدان، ستبقيان هنا حتى أسلمكما إلى الشرطة.

صرخ الاثنان:

ـ ماذا تقول؟

وبصوت واحد تقريبًا:

ـ لقد لبينا دعوة الآنسة.

ترك «جيبيزر» الاثنين، وسمعه «فريدولين» يقول لهما:

ـ سنتحدث فيما بعد عن ذلك، أم أنكما لم تلاحظا على الفور أن الفتاة مخبولة؟

ثم التفت إلى «فريدولين» قائلًا:

ـ أعتذر عن هذا الحادث يا سيدي.

ردَّ «فريدولين»:

ـ أوه، لم يحدث شيء.

ودَّ لو ظل واقفًا هناك، أو أخذ الصغيرة معه، سيان إلى أين، وسيان ما سيحدث بعد ذلك. تطلعت إليه بنظرة جذابة وطفولية، وكأنها مجذوبة إليه. كان القاضيان يتحدثان في نهاية الممر مع بعضهما البعض بانفعال.

توجه «جيبيزر» إلى «فريدولين» وسأله بنبرة موضوعية:

ـ تريد رداء راهب، سيدي، وقبعة الحجاج، وقناعًا؟

قالت المهرجة بعينين لامعتين:

ـ كلَّا، بل عليك أن تعطي هذا السيد معطفًا ملكيًّا بالفراء، وصدرة من الحرير الأحمر.

ردَّ «جيبيزر»:

ـ عليكِ ألا تتحركي من جانبي.

ثم أشار إلى رداء داكن كان معلقًا بين أحد أردية العبيد ورداء سيناتور من فينيسيا.

ـ هذا يلائم مقاسك، وهنا القبعة المناسبة، خذ، بسرعة.

مرة أخرى تحدث القاضيان:

ـ ستدعنا ننصرف بلا تأخير، سيد «شيبيزيه».

تعجب «فريدولين» من أنهما لفظا الاسم بالنطق الفرنسي.

ردَّ صاحب محل الأقنعة متهكمًا:

ـ هذا أمر غير وارد، وستكونان من اللطف بحيث تنتظراني هنا حتى أعود.

في تلك الأثناء لبس «فريدولين» رداء الرهبان، وعقد الشريطين الأبيضين

المتدليين، ثم ناوله «جيبيزر»، وهو واقف على سلم ضيق، قبعة الحجاج السوداء ذات الحافة العريضة، فوضعها «فريدولين» على رأسه، لكنه فعل كل ذلك وكأنه مضطر، إذ تزايد لديه الشعور بأنه ملزم بالبقاء ليساند المهرجة في مواجهة الأخطار المحدقة بها. أما القناع الذي دسه «جيبيزر» في يده، والذي جربه «فريدولين» على الفور، فقد فاح منه عطر غريب، منفر بعض الشيء.

قال «جيبيزر» للصغيرة وهو يشير إلى الدرج آمراً:

ـ سيري أمامي.

استدارت المهرجة، وأرسلت بصرها إلى نهاية الممر، ولوحت بيدها تحية وداع مرحة وحزينة في وقت واحد. تتبع «فريدولين» بصرها؛ لم يعد يقف القاضيان هناك، بل سيدان رشيقان ببذلتَي «فراك» ورباطي عنق أبيضين، لكن قناعًا أحمر كان لا يزال على وجه كل منهما. بخفة هبطت المهرجة السلم اللولبي، ووراءها «جيبيزر»، وتبعهما «فريدولين». في الحجرة الأمامية بالأسفل فتح «جيبيزر» بابًا يقود إلى الغرف الداخلية، وقال للمهرجة:

ـ عليكِ أن تسيري الآن إلى فراشك، أيتها المنحلة، ولنا حديث بمجرد ما أنتهي من حسابي مع السيدين بالأعلى.

وقفت عند الباب، بيضاء ورقيقة، وهزت رأسها وهي تنظر بحزن في اتجاه «فريدولين». في مرآة كبيرة معلقة على الحائط إلى اليمين تطلع «فريدولين» إلى حاج نحيل، لم يكن سوى نفسه، وتعجب من أن الأشياء تسير سيرها الطبيعي هكذا.

اختفت المهرجة، وأوصد صاحب محل الأقنعة الباب خلفها. ثم فتح باب الشقة وألح على «فريدولين» أن يهبط الدرج. فقال «فريدولين»:

ـ معذرة، أدين لك...

ـ دع هذا يا سيدي، الدفع عند إعادة الزي، أثق بك.

لكن «فريدولين» لم يتحرك من مكانه:

ـ هل تحلف لي أنك لن تمس الطفلة المسكينة بسوء؟

ـ وما شأنك بهذا، سيدي؟

ـ لقد سمعتك وأنت تصف الصغيرة بأنها «مخبولة»... والآن أطلقت عليها «منحلة». وهذا تناقض لافت لا يمكنك إنكاره.

ردَّ «جيبيزر» بلهجة مسرحية:

ـ سيدي، أليس المخبول كائنًا منحلًّا أمام الرب؟

هز «فريدولين» رأسه مشمئزًّا. ثم قال:

ـ كما هو الأمر دائمًا، بالتأكيد يمكن مساعدتها. أنا طبيب. سنتحدث غدًا عن الأمر.

ضحك «جيبيزر» ضحكة خافتة متهكمة. أُنير الدرج فجأة، وانغلق الباب بين «جيبيزر» و«فريدولين»، وعلى الفور شُد المزلاج. خلع «فريدولين»، خلال هبوطه الدرج، القبعة والرداء والقناع، ثم وضع كل ذلك تحت ذراعه. فتح له البواب البوابة، وكانت عربة الموتى تقف على الجانب الآخر، والحوذي المتخشب يجلس في مقدمتها. كان «ناختيجال» يهم بمغادرة المقهى، ولم يبدُ سعيدًا عندما رأى «فريدولين» هناك في الوقت المناسب.

ـ إذن، لقد حصلت على زي مناسب؟

ـ كما ترى. وكلمة السر؟

ـ أنت مُصر إذن؟

ـ بالتأكيد.

ـ إذن، كلمة السر هي: «الدنمارك».

ـ ألستَ رائعًا يا «ناختيجال»؟

ـ لماذا رائع؟

ـ لا شيء، لا شيء. كنت بالصدفة في الصيف على أحد الشواطئ الدنماركية. اركب إذن، ولكن تمهل حتى يكون لديَّ وقت لكي أستقل عربة من الناحية الأخرى.

هز «ناختيجال» رأسه موافقًا، وأشعل بهدوء سيجارة، في حين عبر «فريدولين» بسرعة الطريق، وركب حنطورًا، وأمر الحوذي بلهجة عادية، وكأنه يمزح، أن يسير خلف عربة الموتى التي همت في تلك اللحظة بالتحرك.

انطلقوا عبر «ألزر-شتراسه»، ثم تحت أحد جسور قطار الضواحي، وواصلوا طريقهم في شوارع جانبية مهجورة وسيئة الإضاءة. فكر «فريدولين» في احتمالية أن يفقد حوذي عربته أثر العربة الأمامية، لكنه كلما مد رأسه، من الشباك المفتوح، إلى الهواء الدافئ على نحو غير طبيعي، كان يرى العربة الأخرى دائمًا على بعد معقول، كما كان الحوذي ذو القبعة العالية يجلس بلا حراك في مقدمتها. قال «فريدولين» لنفسه: من الممكن أيضًا أن ينتهي الأمر نهاية سيئة. كان لا يزال يشعر برائحة الورد والمسحوق التي تصاعدت إلى أنفه من نهدَي المهرجة. بأي رواية غريبة مررت أنا؟ هكذا تساءل. كان عليَّ ألا أمضي في الأمر، ربما لم يكن يجوز ذلك. أين أنا الآن؟

بين فيلَّات متواضعة صعد بهم الطريق قليلًا. اعتقد «فريدولين» أنه يعرف المكان؛ في بعض الأحيان قادته تمشياته إلى هنا قبل أعوام: لا بد أنهم يصعدون الآن جبل «جاليتسين». رأى في العمق، إلى اليسار، المدينة المختبئة خلف الضباب والمتلألئة بآلاف الأنوار. سمع صرير عجلات وراءه، فنظر من الشباك إلى الخلف. كانت عربتان تسيران وراءه، ووافقه ذلك، إذ على هذا النحو لن يشك فيه حوذي الموتى مطلقًا.

وفجأة، انحرفت العربة بشدة، ثم سارت بهم إلى أسفل بين الأسلاك والأسوار والمنحدرات، وكأنها تسير إلى قاع الوادي. تذكر «فريدولين» أن الوقت أزف لكي

يرتدي القناع. خلع الفراء، وارتدى رداء الراهب مثلما اعتاد في كل صباح أن يُدخل ذراعيه في المعطف الكتاني في القسم الذي يعمل به في المستشفى. ثم راح يفكر، وكأنه يفكر في شيء منقِذ، في أنه بعد عدة ساعات سيتجول، مثل كل صباح، بين أسرَّة مرضاه. طبيب يمد دائمًا يد العون.

توقفت العربة. سأل «فريدولين» نفسه: ماذا لو لم أنزل من العربة، وعدتُ أدراجي فورًا؟ ولكن إلى أين؟ إلى المهرجة الصغيرة؟ أم إلى العاهرة في «بوخفلد-جاسه»؟ أم إلى «ماريانه»، ابنة المتُوفىَّ؟ أم إلى البيت؟ شعر برعب خفيف عندما فكر أن أقل مكان يتشوق إليه الآن هو البيت. أم أن السبب هو أن الطريق إليه هو الأبعد؟ قال لنفسه: كلَّا، لا أستطيع العودة. سأواصل طريقي، حتى لو كان يعني موتي. ضحك لاستخدامه هذه الكلمة الكبيرة، لكنه لم يشعر خلال ذلك بالمرح الشديد.

كانت بوابة حديقة مفتوحة على مصراعيها. واصلت عربة الموتى أمامه المسير إلى عمق الوادي، أو إلى قلب الظلام مثلما بدا له.

كان «ناختيجال» قد ترجل. قفز «فريدولين» بسرعة من عربته، وأمر الحوذي بأن ينتظر عودته عند الناصية مهما طال الأمر. ولكي يتأكد من طاعته، نفحه مقدمًا أجرًا مجزيًا، ووعده بمبلغ مماثل لرحلة العودة. وصلت العربات التي كانت تتبعه. رأى كيانًا أنثويًّا محجبًا يهبط من العربة الأولى. ثم دخل «فريدولين» إلى الحديقة، ووضع القناع على وجهه. درب ضيق، مضاء من ناحية المنزل، يؤدي إلى البوابة. انفتح المصراعان، فألفى نفسه في صالة أمامية ضيقة بيضاء. استقبلته أنغام صادرة عن آلة «هارمونيوم»، ووجد خادمين يقفان يمينًا ويسارًا، يرتدي كل منهما زيًّا داكنًا، في حين اختبأ وجه كل منهما وراء قناع رمادي.

سمع صوتين يهمسان:

ـ كلمة السر؟

فأجاب:

ـ «الدنمارك».

تناول أحد الخادمين فراءه واختفى به في حجرة جانبية، في حين فتح الآخر باباً، فدخل «فريدولين» إلى قاعة عالية السقف، ضبابية الأجواء، مظلمة تقريبًا، جدرانها مكسوة بحرير أسود. أشخاص مقنعون، يرتدون كلهم أزياء دينية، كانوا يروحون ويجيئون، من ستة عشر إلى عشرين شخصًا، رهبان وراهبات. صدحت الأنغام في وداعة، أنغام كَنَسية إيطالية بدت وكأنها تهبط من أعلى. في إحدى زوايا القاعة وقفت مجموعة صغيرة: ثلاث راهبات وراهبان؛ ومن هناك كانوا يسيرون في اتجاهه بشكل عابر، ولكنهم ما لبثوا ـ وكأنهم يقصدون ذلك ـ أن أعرضوا عنه. لاحظ «فريدولين» أنه الوحيد الذي غطى رأسه، فخلع قبعة الحُجاج، ثم راح وجاء في المكان بأقصى قدر ممكن من البراءة. مسح راهب على ذراعه وأومأ بتحية؛ ولكن خلف القناع رأى «فريدولين»، لمدة ثانية، نظرة تثقب عينيه. أحاطت به رائحة زكية غريبة وثقيلة، وكأنها منبعثة من حديقة في إحدى دول الجنوب. مرة أخرى مسحت ذراع عليه. في هذه المرة كانت ذراع راهبة. مثل الأخريات كانت قد لفت غلالة سوداء حول الجبهة والرأس والعنق، وخلف الدانتيلا الحريرية السوداء التي تغطي القناع لمعَ فمها الأحمر الدموي. سأل «فريدولين» نفسه: أين أنا؟ وسط مجانين؟ وسط متآمرين؟ هل دخلتُ إلى اجتماع فرقة دينية ما؟ ربما تلقى «ناختيجال» أمراً أو مالاً لكي يُحضر معه شخصًا غير مطلع على الأمر ليسخروا منه؟ ولكن الأمر بدا له أكثر جدية، وأكثر مللاً، وأكثر رهبة من أن يكون مجرد مزاح في حفل أقنعة. النغمات يرافقها الآن صوت أنثوي، تصاعدت في المكان افتتاحية أوبرا دينية باللغة الإيطالية القديمة. وقف الجميع ساكنين، وكأنهم يصغون، «فريدولين» أيضًا ترك نفسه لوهلة أسيراً للنغمات المتنامية الرائعة. وفجأة همس صوت أنثوي خلفه:

ـ لا تلتفت إليَّ! ما زال لديك وقت للانصراف. لستَ مِنَّا. إذا كشفوك، فسيكون مصيرك سيئًا.

ارتعدت فرائص «فريدولين». لثانية فكر في أن يطيع التحذير. لكن الفضول، والإغراء، وكبرياءه أولاً وأخيراً، كانت أقوى من أي شكوك. لقد قطعتُ شوطاً

كبيراً، هكذا قال لنفسه، وليتهِ الأمر كما شاء أن ينتهي. ثم هز رأسه نافيًا، من دون أن يلتفت إلى الوراء. عندئذٍ همس الصوت خلفه:

ـ إني أرثي لك لو بقيتَ.

التفت في تلك اللحظة إلى الوراء. رأى الفم الأحمر الدموي يبرق عبر الدانتيلا. وغرقت عينان سوداوان في عينيه.

ـ سأبقى.

قالها بنبرة بطولية استنكرها من نفسه، ثم تحول عن الوجه ثانية. علا الغناء رائعًا، صارت نغمات «الهارمونيوم» جديدة، لم تعد دينية، بل دنيوية فخمة، تندفع كشلال مثل أنغام أرغن. تجول بالبصر حوله، فلاحظ أن الراهبات كلهن اختفين، وأن القاعة لم يعد بها سوى رهبان. كان الصوت الشادي قد انتقل أيضًا من الجدية المظلمة إلى تنويعات فنية متصاعدة، وصولًا إلى البهجة والتهليل، وبدلًا من صوت «الهارمونيوم» سمع «فريدولين» صوت البيانو، صوتًا أرضيًّا وقحًا. تعرف فورًا على عزف «ناختيجال» الجامح والمثير، والصوت النسائي الذي كان ساميًا أطلق في تلك اللحظة صرخة أخيرة، حادة، شبقية، صرخة تجاوزت السقف وانطلقت إلى اللامحدود. انفتح البابان يمينًا ويسارًا، في أحد الجوانب تعرف «فريدولين» على الملامح الخارجية الداكنة لـ«ناختيجال» على البيانو، أما الغرفة على الجانب الآخر فتألقت بضوء باهر. وقفت النساء هناك بلا حراك، وكل واحدة منهن تضع وشاحًا داكنًا على الرأس والجبهة والرقبة، ودانتيلا سوداء فوق القناع على الوجه، وعدا ذلك كن عاريات تمامًا. تاهت عينا «فريدولين» الجائعتان بين الكائنات الممتلئة والرشيقة، الرقيقة واللحيمة الفخيمة؛ ظلت كل واحدة من أولئك العاريات مع ذلك سرًّا، ومن الأقنعة السوداء لمعت عيون واسعة في اتجاهه كلغز لا يمكن حله، كل هذا جعل اللذة العظيمة للمشاهدة عذابًا يكاد لا يُحتمل ـ عذاب الرغبة. لكن ما حدث له، حدث للآخرين أيضًا. الأنفاس الأولى المفتونة تحولت إلى آهات بدت وكأنها أنَّات عميقة؛ في مكان ما انفجرت صرخة، وفجأة، وكأن هناك مَن يطاردهم، اندفعوا كلهم، لم يعودوا

يرتدون أردية الرهبان، بل أزياء الفرسان الاحتفالية البيضاء والصفراء والزرقاء والحمراء، اندفعوا من القاعة ضبابية الأجواء إلى النساء، وهناك استقبلتهم ضحكات عابثة، تكاد تكون شريرة. كان «فريدولين» هو الوحيد من بين الرهبان الذي بقي في مكانه، ثم تسلل، شاعراً ببعض الخوف، إلى ركن بعيد. وجد نفسه قريبًا من «ناختيجال» الذي أدار له ظهره. رأى «فريدولين» بالطبع أن ثمة شريطًا على عينَي «ناختيجال»، لكنه اعتقد أنه لاحظ كيف كانت نظرات العينين تحت ذلك الشريط تحفر طريقها في المرآة العالية في مقابله، حيث انعكست صورة الفرسان الملونين وهم يدورون مع راقصاتهم العاريات.

وفجأة وقفت إحدى النساء خلف «فريدولين» وقالت هامسة، إذ لا أحد كان يتحدث بكلمة مسموعة، وكأن على الأصوات أيضًا أن تبقى سرًّا:

ـ لماذا تقف وحيدًا هكذا؟ لماذا لا تنضم إلى الراقصين؟

لاحظ «فريدولين» أن نبيلين من الركن الآخر يصوبان نظراتهما عليه، ورجح أن هذا الكائن الذي يقف بجانبه ـ كان نحيفًا ويسلك كالغلمان ـ قد أُرسل إليه لاختباره وإغوائه. مع ذلك مد ذراعيه في اتجاه المرأة كي يشدها إليه، وفي تلك اللحظة انفصلت إحدى النساء عن راقصها وسارت مباشرة في اتجاه «فريدولين». أدرك على الفور أنها مُحذرته السابقة. وقفت بجواره وكأنها تراه للمرة الأولى، ثم همست، ولكن بصوت مسموع حتى لدى الواقفين في الركن الآخر:

ـ هل عدتَ أخيراً؟

ثم أضافت، ضاحكة بمرح:

ـ كل هذا بلا فائدة، لقد انكشفتَ.

والتفتت إلى المرأة الغلمانية قائلة:

ـ اتركيه لي لمدة دقيقتين فقط. وبعد ذلك سيكون لكِ، حتى الصباح إن شئتِ.

وبصوت خافت أضافت، وكأنها مبتهجة بذلك:

ـ إنه هو، نعم، هو.

ردَّت الأخرى متعجبة:

ـ فعلاً؟

ثم سارت مسرعة إلى الزاوية حيث يقف الفرسان.

قالت المرأة عندئذٍ لـ«فريدولين»:

ـ لا تسأل.

ثم أضافت:

ـ ولا تتعجب من أي شيء. لقد حاولتُ تضليلها، ولكني أقول لك من البداية: لن تستطيع الاستمرار. اهرب قبل أن يفوت الأوان. وقد يفوت الأوان في أي لحظة. وكن حذرًا حتى لا يتعقبك أحد. لا يجوز أن يعرف أحد مَن أنت. وإلا فقدت هدوءك، وسلام وجودك، إلى الأبد. انصرف!

ـ هل سأراكِ ثانية؟

ـ مستحيل.

ـ سأبقى إذن.

سرت رعشة في جسدها العاري، انتقلت له وكادت تقيِّد حواسه. قال لها:

ـ لن أخاطر إلا بحياتي، وأنتِ تستحقينها في هذه اللحظة.

أمسك بيديها، وحاول أن يجذبها إليه. همست له مرة أخرى، ولكن كاليائسة:

ـ انصرف!

ضحك، وسمع ضحكته كما يسمع المرء نفسه في الحلم.

ـ إنني أرى أين أنا. إنكن هنا، جميعًا، لكي نُفتَن برؤياكن! أنتِ تمزحين معي مزحة خاصة لكي تُفقديني عقلي تمامًا.

ـ سيتأخر الوقت، انصرف!

لم يرد الإصغاء إليها.

ـ أليست هنا غرف سرية يستطيع أن يذهب إليها رجل وامرأة وجدَ كل منهما الآخر؟ وهل سيقوم كل الحاضرين هنا بتوديع بعضهم بعضًا بقبلة مهذبة على اليد؟ لا يبدو عليهم ذلك.

وأشار إلى ثنائيات العشاق التي واصلت، بعد انتهاء النغمات المنسابة من البيانو، رقصَها في الغرف الجانبية المكسوة بالمرايا المضاءة إضاءة باهرة، أجساد بيضاء متوهجة تلتصق بحرير أزرق وأحمر وأصفر. شعر أن لا أحد يهتم بأمره الآن وبأمر المرأة بجانبه؛ كانا يقفان في القاعة الوسطى المظلمة، وحيدين تمامًا تقريبًا.

قالت له هامسة:

ـ أمل لن يتحقق. لا غرف هنا مثلما تحلم. إنها الدقيقة الأخيرة. اهرب!

ـ تعالي معي.

هزت رأسها بشدة، وكأنها يائسة.

ضحك مرة أخرى، ولم يتعرف على ضحكته:

ـ أنت تسخرين مني. هل جاء هؤلاء الرجال والنساء إلى هنا لكي يشعل كل منهم نار الآخر، ثم يزدرون بعضهم بعضًا؟ مَن يمنعكِ من الذهاب معي إذا أردتِ؟

تنفست بعمق وخفضت رأسها. فقال لها:

ـ آه، فهمت الآن. إنها العقوبة التي حددتموها لمن يتسلل إلى هنا من دون دعوة. لم يكن بإمكانكم تحديد عقوبة أكثر وحشية. ارفعيها عني. أصدري عفوًا. وقعي عليَّ عقوبة أخرى، إلا أن أذهب من دونكِ!

ـ أنت مجنون. لا أستطيع الذهاب معك من هنا، ولا مع أي أحد. ومن يحاول أن يتبعني، يضع حدًّا لحياته وحياتي.

كان «فريدولين» كالثمل، ليس فقط منها، ومن جسدها الفواح، وفمها الأحمر المتوهج، ليس فقط من أجواء هذه الغرفة، والأسرار الشهوانية التي تحيط به هنا؛ كان، في آنٍ واحد، ظمآن ومنتشيًا من كل ما عايشه في تلك الليلة، والذي لم يصل شيء منه إلى نهايته؛ ظمآن ومنتشيًا من نفسه، ومن جسارته، ومن التحولات التي شعر بها في داخله. لمس بيديه الوشاح الملتف على رأسها، وكأنه يريد سحبه إلى أسفل.

أمسكت بيديه قائلة:

ـ ذات ليلة، فكر أحدهم في نزع الوشاح من جبهة واحدة منا خلال الرقص، فانتزعوا القناع من على وجهه ثم لاحقته السياط حتى خرج.

ـ و... هي؟

ـ ربما قرأتَ عن فتاة صغيرة جميلة... حدث هذا قبل عدة أسابيع فحسب، هذه الفتاة تناولت السم في اليوم السابق لزفافها.

تذكر الفتاة، وتذكر اسمها أيضًا. ونطق به. ألم تكن فتاة من بيت أمراء، وكانت مخطوبة لأمير إيطالي؟

أومأت موافقة.

فجأة وقف أحد الفرسان إلى جانبهما ـ أكثرهم وجاهة، الوحيد الذي يرتدي زيًّا أبيض ـ وبانحناءة قصيرة، مهذبة لكن آمرة، طلب من المرأة التي كان «فريدولين» يتحدث معها أن ترقص معه. هُيئ لـ«فريدولين» أنها ترددت لوهلة.

لكن الآخر ضمها وأسرع معها إلى الثنائيات الأخرى في القاعة الجانبية المضاءة.

ألفى «فريدولين» نفسه وحيدًا، فوقع عليه هذا الهجران الفجائي مثلما يقع الصقيع على المرء. تلفت حوله. بدا أن لا أحد يهتم بأمره في هذه اللحظة. ربما كانت هذه هي الفرصة الأخيرة للانصراف من هنا من دون عقوبة. ما جعله يقف كالمُقيد في ركنه ـ حيث كان يشعر بأنه لم يعد يُرى أو يُلاحظ ـ هو الخجل من الانسحاب المخل بالشرف أو السخيف بعض الشيء، والرغبة المعذِّبة، غير المشبَعة، في جسد المرأة الرائع الذي ما زال عبيره يفوح حوله؛ أم هي فكرة أن كل ما حدث حتى الآن قد يكون اختبارًا لشجاعته، وأن المرأة الرائعة ستكون جائزته؟ لم يكن هو نفسه يعرف. على كل حال كان واضحًا بالنسبة إليه أن هذا التوتر لا يمكن احتماله أكثر من ذلك، وأن عليه ـ على الرغم من كل المخاطر ـ أن يضع حدًّا للأمر. أيًّا كان قراره، فلن يكون الثمن حياته. ربما يكون بين مجانين، وربما بين ماجنين، لكنه بالتأكيد ليس بين أشرار أو مجرمين. خطر على باله التقدم إليهم، والاعتراف بأنه مقتحم للمكان، ومواجهتهم بشهامة وفروسية. بهذا الشكل وحده، في تآلف نبيل، يمكن اختتام هذه الليلة، هذا إذا كان لها معنى أكثر من كونها مجرد تتابع مضطرب وغائم لمغامرات مظلمة وكئيبة، غريبة وشهوانية، مغامرات لم تصل أي منها إلى نهايتها بعد. تنفس الصعداء وهيأ نفسه للأمر.

في هذه اللحظة سمع همسًا بجانبه:

ـ كلمة السر!

فارس يرتدي الأسود كان قد وقف بالقرب منه فجأة، ولأن «فريدولين» لم يجب على الفور، وجه سؤاله للمرة الثانية، فردَّ «فريدولين»:

ـ «الدنمارك».

ـ صحيح يا سيدي، هذه هي كلمة السر للمرور من المدخل. ما كلمة سر البيت، إذا سمحت لي؟

صمت «فريدولين».

ـ لا تريد أن تتكرم وتقول كلمة سر البيت؟

بدت الحروف حادة كسكين.

هز «فريدولين» كتفَيه. تقدم الآخر إلى منتصف الغرفة، ورفع يده، فخرست موسيقى البيانو، وتوقف الرقص. انضم إليه فارسان آخران، أحدهما في زي أصفر والآخر في زي أحمر، وقالا في نفس واحد:

ـ كلمة السر، سيدي!

ردَّ «فريدولين» بابتسامة فارغة، شاعراً بهدوء تام:

ـ نسيتها.

فقال السيد في الزي الأصفر:

ـ هذا من سوء الحظ، فالأمر يتساوى هنا ما إذا كنت نسيتها أو لم تعرفها من الأساس.

تدفق الرجال الآخرون المقنعون، وأُغلقت الأبواب على كلا الجانبين. وقف «فريدولين» بزي الراهب، وحيدًا بين الفرسان الملونين. صاح بعضهم في وقت واحد:

ـ اخلع القناع!

مد «فريدولين» ذراعيه إلى الأمام وكأنه يحمي نفسه. بدا له أنه لو وقف وحده سافِرَ الوجه بين كل هؤلاء المقنَّعين، فسيكون الأمر أسوأ آلاف المرات من أن يقف فجأة عاريًا بين اللابسين. بصوت ثابت قال:

ـ إذا كان أحد السادة قد شعر، بسبب ظهوري، بأي إهانة لشرفه، فإنني أعلن هنا عن استعدادي بأن أرد له الاعتبار بالطريقة المألوفة. لكنني لن أنزع قناعي إلا في حالة واحدة، وهي أن تفعلوا جميعًا الشيء نفسه يا سادتي.

قال الفارس في الزي الأحمر، الذي لم يتحدث حتى الآن:

ـ ليس المهم هنا هو رد الاعتبار، بل التكفير عن الذنب.

ثم أمر فارس آخر بصوت وقح ورنان ذكَّر «فريدولين» بنبرة الضباط عندما يُصدرون الأوامر:

ـ اخلع القناع! سنقول لك في وجهك ما ينتظرك، ولن نقوله إلى القناع.

بصوت أكثر حدة قال «فريدولين»:

ـ لن أخلعه. وويل لمن يجرؤ على لمسي.

فجأة، امتدت ذراع ما إلى وجهه وكأنها تريد نزع القناع، ثم انفتح باب ودخلت إحدى النساء. لم يستطع «فريدولين» أن يحدد مَن هي. كانت ترتدي زي الراهبات كما رآها للمرة الأولى. وخلفها، في الغرفة ذات الإضاءة الباهرة، كان يمكن رؤية الأخريات، عاريات وعلى الوجوه غلالة، يقفن متلاصقات، صامتات، قطيعًا مذعوراً. غير أن الباب انغلق على الفور ثانية. قالت الراهبة:

ـ اتركوه، أنا مستعدة لأن أعتقه.

ساد صمت قصير عميق، وكأن شيئًا خارقًا قد حدث، ثم التفت الفارس الأسود ـ الذي كان أول مَن طلب كلمة السر من «فريدولين» ـ إلى الراهبة قائلًا:

ـ أنتِ تعرفين ما تلقينه على كاهلك بسبب ذلك.

ـ أعرف.

قال الفارس لـ«فريدولين»:

ـ أنت حر، غادِر هذا البيت بلا عقاب، ولكن حذارِ من التفتيش وراء أسرارٍ تسللتَ إلى هنا للاقتراب منها. وإذا حاولت أن تكلف شخصًا باقتفاء آثارنا، فمعنى ذلك ضياعك، سواء نجح في مهمته أم لا.

لم يتحرك «فريدولين». وسأله:

ـ كيف... كيف ستعتقني هذه المرأة؟

لا رد. أشارت أذرع عديدة إلى الباب، كإشارة أن عليه الانصراف فوراً.

هز «فريدولين» رأسه قائلًا:

ـ احكموا عليَّ، يا سادتي، بما شئتم، لن أسمح بأن يدفع كائن بشري آخر ثمن فعلتي.

فردَّ الفارس الأسود بصوت وديع تمامًا:

ـ لن تستطيع تغيير مصير هذه المرأة. إذا قطع أحد عهدًا على نفسه هنا، فلا مجال للرجوع إلى الوراء.

أومأت الراهبة ببطء، وكأنها تؤكد ذلك. ثم قالت لـ«فريدولين»:

ـ اذهب!

ردَّ «فريدولين» بصوت أعلى:

ـ كلَّا! إذا انصرفت من هنا من دونك، فلن تكون للحياة قيمة بالنسبة إليَّ. لن أسألك: مِن أين أنتِ؟ أو مَن أنتِ؟ ماذا يهمكم، يا سادتي المجهولين، ما إذا كانت هذه الكوميديا الكرنفالية، حتى وإن كانت موضوعة لتصل إلى خاتمة جادة، ستمثَّل حتى النهاية أم لا؟ أيًّا كنتم، يا سادتي، فلكم على كل حال حياة أخرى غير هذه. لكنني لا أمثل في أي كوميديا، ولا هنا أيضًا، وإذا كنتُ قد فعلتُ ذلك مضطراً حتى هذه اللحظة، فإنني أتوقف الآن عن ذلك. أشعر بأنني أواجه قدراً لم يعد له أي علاقة بلعبة الأقنعة هذه. أريد أن أبوح لكم باسمي، وأن أخلع قناعي، وسأتحمل العواقب كافة.

صاحت الراهبة:

ـ حذارِ! ستعرض نفسك للتهلكة من دون أن تنقذني! اذهب!

ثم التفتت إلى الآخرين قائلة:

ـ هأنذا، إني طوع أمركم، جميعًا!

انزلق الرداء الداكن من عليها، وكأن ذلك حدث من خلال السحر. وقفت في بهاء جسدها الأبيض، مدت يدها تجاه الوشاح الذي كان يغطي جبهتها ورأسها ومؤخر العنق، وبحركة دائرية رائعة حلَّته. وقع على الأرض، واندفع شعرها الأسود على كتفيها وصدرها وخصرها. ولكن قبل أن يلمح «فريدولين» تفاصيل وجهها، أمسكت به أذرع لا تُقَاوم، وانتزعته من مكانه دافعة به إلى الباب؛ في اللحظة التالية وجد نفسه في الغرفة الأمامية. انغلق الباب خلفه، وأحضر له خادم مقنَّع الفراء، وساعده على ارتدائه، ثم انفتحت بوابة المنزل. واصل مشيته مسرعًا وكأنه مدفوع بقوة غير مرئية، ثم وقف في الشارع وانطفأ الضوء خلفه. تلفت حوله ورأى المنزل منتصبًا في صمت، بنوافذ مغلقة لم يتسرب منها أي شعاع. سيطرت عليه فكرة واحدة: عليَّ أن أحتفظ بكل شيء في ذاكرتي بدقة بالغة. عليَّ أن أجد المنزل ثانية، وكل شيء آخر سيكون سهلًا.

أحاط به الليل. على مبعدة ما، هناك، حيث ينبغي أن تكون العربة في انتظاره، توهج ضوء فانوس باحمرار متعكر. من عمق الشارع جاءت عربة الموتى وكأنه نادى عليها. فتح له أحد الخدم باب العربة. قال «فريدولين»:

ـ سأستقل عربتي.

هز الخادم رأسه.

ـ إذا كان الحوذي قد انصرف، فسأعود إلى المدينة سيراً على الأقدام.

أشاح الخادم بيده إشاحة لا تصدر عن خادم، قاطعًا الطريق على أي اعتراض. اخترقت قبعة الحوذي العالية الليل على نحو يثير الضحك. هبت الريح قويةً، وفي السماء عبَرت مسرعةً سحبٌ أرجوانية. أدرك «فريدولين»، بعد ما مر به حتى الآن، أنه لم يتبقَّ أمامه سوى ركوب العربة التي تحركت على الفور.

صمم «فريدولين» أن يقوم، على الرغم من المخاطر، بالكشف عن ملابسات المغامرة بأسرع ما يمكن. لم يعد لوجوده أدنى معنى ـ هكذا تراءى له ـ إذا لم ينجح في العثور ثانية على المرأة الغامضة التي تدفع في هذه الساعة ثمن إنقاذه. كان من السهل أن يحدس بكنهه. لكن ما الذي دفعها إلى التضحية بنفسها من أجله؟ التضحية؟ هل هي تعتبر ما ينتظرها، أو ما تتقبل وقوعه في تلك اللحظات، تضحية من الأساس؟ إذا كانت تشارك في مثل تلك الحفلات ـ ولا يمكن أن تكون قد شاركت اليوم للمرة الأولى، لأنها أظهرت معرفتها بالطقوس هناك ـ فما الذي جعلها لا تنصاع إلى ذلك الفارس، أو لا تنصاع إليهم كلهم؟ نعم، أمن الممكن أن تكون شيئًا آخر سوى عاهرة؟ أمن الممكن أن تكون كل أولئك النساء شيئًا آخر سوى عاهرات؟ عاهرات، لا شك. حتى وإن كن جميعًا يمارسن حياة أخرى، لنقُل حياة برجوازية، غير هذه الحياة التي هي حياة عاهرات. ألم يكن كل ما عايشه قبل قليل، على الأرجح، سوى مزاح دنيء سمحوا لأنفسهم به؟ مزاح أعدوه، أو تهيأوا له، بل ربما تدربوا عليه انتظارًا لشخص غير مدعو يتسلل إلى هنا؟ مع ذلك، إذا فكر في تلك المرأة التي حذرته في البداية، ثم كانت مستعدة لكي تتولى دفع الثمن نيابة عنه، فإن ثمة شيئًا في صوتها، في موقفها، في السمو الملكي لجسدها العاري، لا يمكن أن يكون أكذوبة. أم أن ظهوره هو، «فريدولين»، المفاجئ هو الذي تسبب ربما في أعجوبة حوَّلتها؟ بعد كل ما لاقاه في هذه الليلة، لم يعتبر ـ وهو لم يدرك ما في هذه الفكرة من مباهاة ـ حدوث معجزة كهذه أمرًا مستحيلًا. ثمة ساعات ربما، ليالٍ، هكذا فكر، يُشع فيها الرجال مثل هذا السحر الغريب الذي لا يقاوَم، رجال لا يمارسون في الظروف العادية سلطة خاصة على الجنس الآخر؟

ما زالت العربة تسير على طريق صاعد بين تلال. كان عليه منذ فترة طويلة ـ لو كان كل شيء يسير على نحو صحيح ـ أن ينحرف إلى الشارع الرئيسي. ماذا ينوون أن يفعلوا معه؟ إلى أين ستمضي به العربة؟ ربما تشهد الملهاة فصلًا آخر؟ وكيف سيكون هذا الفصل؟ ربما تتضح الأمور؟ اللقاء المرح في مكان آخر؟ مكافأة بعد النجاح الفائق في الاختبار، القبول به عضوًا في المحفل السري؟ حيازة الراهبة الرائعة من دون إزعاج من أحد؟ كانت نوافذ العربة مغلقة، حاول

«فريدولين» أن ينظر إلى الخارج، لكنها كانت غير شفافة. همَّ بفتح الشباكين، يمينًا، ويسارًا، لم يكن ذلك ممكنًا؛ كلاهما غير شفافين، كما أن اللوح الزجاجي الفاصل بينه وبين الحوذي موصد تمامًا. قرع اللوح الزجاجي، صاح، صرخ، لكن العربة واصلت السير. أراد فتح باب العربة، على اليمين، على اليسار، لكنهما لم يستجيبا، ضاعت صيحاته مع قرقعة العجلات وفي هزيم الرياح. بدأت العربة في الاهتزاز على أرض غير ممهدة، ثم سارت هابطةً بسرعة متزايدة. كان «فريدولين»، وقد تملكه القلق والخوف، على وشك أن يهشم إحدى النافذتين العمياوين، غير أن العربة توقفت فجأة. انفتح كلا البابين في الوقت نفسه، وكأن آلية ما أحدثت ذلك، وكأنهم، على نحو ساخر، يضعون «فريدولين» أمام اختيار بين اليمين واليسار. قفز من العربة، وانغلق البابان؛ ومن دون أن يولي الحوذي «فريدولين» أدنى اهتمام، واصلت العربة سيرها في الفضاء حتى ابتلعها الليل.

كانت السماء ملبدة، السحب تطارد بعضها بعضًا، والرياح تصفر. وقف «فريدولين» في الثلوج التي أشاعت حوله ضياء خافتًا. شعر بخوف هائل وهو يقف وحيدًا بفرائه المفتوح، الذي لبسه فوق رداء الراهب، وقبعة الحجاج على رأسه. على مبعدة ما يمتد الشارع العريض. صفان من الفوانيس المهتزة الخافتة يشيران إلى اتجاه المدينة. لكن «فريدولين» سار إلى الأمام، مختصرًا الطريق، عبر الحقل الهابط قليلًا والمغطى بالثلوج، حتى يكون بأسرع ما يمكن بين الناس. بقدمَين مبللتَين وصل إلى حارة ضيقة غير مُنارة، وخطا بداية بين ألواح سور عالية كانت تئن تحت وطأة العاصفة، وبعد الناصية التالية وجد نفسه في شارع أعرض، حيث تناوبت على الظهور بيوت صغيرة متقشفة ومساحات خالية معَدة للبناء. من ساعة أحد أبراج الكنائس دقت الثالثة فجرًا. مر شخص بـ«فريدولين»، مرتديًا سترة قصيرة، وواضعًا يديه في جيبَي سرواله، ودافنًا رأسه بين كتفيه، ومعتمرًا قبعة تغوص في جبينه. وقف «فريدولين» متأهبًا وكأنه سيصد هجومًا، لكن المتشرد استدار على غير توقع، وركض مبتعدًا. تساءل «فريدولين» عن معنى ذلك. ثم فكر في أنه هو نفسه يبدو مثيرًا للخوف بما يكفي، فأنزل القبعة عن رأسه، وزرر المعطف فوق رداء الراهب الذي كان يتدلى حتى الكاحلين. انحرف عند ناصية أخرى، وسار في شارع رئيسي في إحدى الضواحي. مر به

شخص يرتدي ملابس ريفية، وحياه مثلما يحيي المرء كاهنًا. سقط الشعاع الضوئي من أحد الفوانيس على لافتة الشارع المثبتة على المنزل عند الناصية. «ليبهارتستال»؛ إذن، ليس بعيدًا جدًّا عن المنزل الذي غادره قبل ما يقل عن ساعة. لوهلة شعر بقوة تجذبه لكي يسلك الطريق عائدًا، وينتظر تطور الأمور على مقربة من المنزل. لكنه أزاح الفكرة فورًا عن ذهنه، لأنه بذلك سيعرض نفسه لمخاطر جسيمة، ولن يقترب من حل للغز. امتلأت جوانحه بالحنق واليأس والخجل والوجل من تخيل الأشياء التي قد تحدث الآن في الفيلَّا. لم يستطع تحمل هذه الحالة النفسية، لدرجة أنه ندم على أن المتشرد الذي قابله لم يهاجمه، بل كاد يشعر بالندم لأنه لا يرقد بسكين بين أضلاعه عند أحد ألواح السور في ذلك الشارع المهجور. على هذا النحو، كانت هذه الليلة العبثية، بمغامراتها الحمقاء غير المكتملة، ستحصل في النهاية على نوع من المغزى. أما العودة إلى البيت هكذا، مثلما يهم أن يفعل، فقد بدا له بالغ السخافة. لكنه لم يفقد شيئًا بعد. غدًا يوم جديد. أقسم لنفسه ألا يهدأ قبل أن يعثر ثانية على المرأة الجميلة التي أسكرته بعريها الأخاذ. الآن فحسب فكر في «ألبرتينه»، لكنه فكر فيها وكأن عليه أن يغزوها أولًا، وكأنها لا تستطيع أن تكون حبيبته قبل أن يخونها مع كل أولئك اللائي رآهن هذه الليلة، مع المرأة العارية، ومع المهرجة، مع «ماريانه»، ومع المومس في الحارة الضيقة. أليس عليه أيضًا أن يبذل جهدًا للعثور على الطالب الوقح الذي احتك به، لكي يطالبه بالمبارزة بالسيف، أم ربما يفضل المسدس؟ ماذا تعني له حيوات الآخرين، وماذا تعني حياته هو؟ هل على المرء أن يخاطر بها فقط انطلاقًا من الشعور بالواجب، أو بالتضحية؟ أعليه ألا يخاطر بها أبدًا بسبب المزاج، أو العاطفة، أو ببساطة لكي يصارع القدر؟

ثم خطر على باله مرة ثانية أنه يحمل ربما بذرة مرض مميت في بدنه. أليس من الحماقة أن يموت المرء لأن طفلًا مريضًا بالدفتيريا سعل في وجهه؟ ربما كان المرض قد أصابه فعلًا. ألم يشعر بالحمى؟ ألم يرقد في تلك اللحظة في بيته على فراشه؟ وأليس كل الذي يعتقد أنه عايشه مجرد هذيان؟

فتح «فريدولين» عينيه على اتساعهما، ومسح على جبهته وخديه، وتحسس

نبضه. لم يكن مسرعًا إلا قليلًا. كل شيء على ما يرام. كان في كامل يقظته.

واصل السير في الشارع صوب المدينة. انطلقت من خلفه عدة عربات في طريقها إلى السوق، ثم تجاوزته وهي تهتز، وبين الحين والآخر قابل أناسًا يرتدون ثيابًا فقيرة؛ بالنسبة إلى هؤلاء بدأ اليوم لتوه. خلف شباك أحد المقاهي، وعلى مائدة ترتجف فوقها شعلة مصباح يعمل بالغاز، كان إنسان بدين يجلس وقد لف كوفية حول عنقه، ساندًا رأسه بيديه، ومستغرقًا في النوم. ما زالت الظلمة تغمر المنازل، وراء بعض النوافذ المفردة اشتعل الضوء. اعتقد «فريدولين» أنه يشعر باستيقاظ الناس تدريجيًّا، وكأنه يراهم يتمطون في أفرشتهم ويستعدون ليومهم البائس الشاق. هو أيضًا يواجه يومًا، لكنه ليس بائسًا أو كئيبًا. وبخفقان غريب في القلب شعر مبتهجًا أنه خلال ساعات قليلة سيتمشى بمعطفه الكتاني الأبيض بين أسرَّة مرضاه. عند الناصية التالية وقفت عربة يجرها حصان واحد، كان حوذيها ينام في المقدمة. أيقظه «فريدولين» وأعطاه عنوانه، ثم صعد.

(1) يقدَّم هذا الطبق في فيينا ونواحيها يوم «أربعاء الرماد»، الذي يبدأ به في الكنيسة الغربية الصوم الكبير، ومدته أربعون يومًا. (المترجم).

(2) تلاعب بالألفاظ، إذ إن «ناختيجال» يعني بالألمانية «عندليب». (المترجم).

٥

كانت الرابعة فجراً عندما ارتقى الدرج إلى شقته. توجه على الفور إلى الغرفة التي يستخدمها في الكشف الطبي، ووضع الرداء التنكري بعناية في إحدى الخزانات، ولأنه أراد أن يتجنب إيقاظ «ألبرتينه»، خلع الحذاء والملابس قبل أن يسير إلى غرفة النوم. بحذر ضغط على زر مصباح السرير خافت الضوء. كانت «ألبرتينه» ترقد هادئة، وقد التفت ذراعاها تحت رقبتها، شفتاها شبه مفتوحتين، وتحيط بهما ظلال متألمة؛ كان وجهًا لا يعرفه «فريدولين». انحنى فوق جبهتها التي تجعدت على الفور وكأنه لمسها، وتجهمت أساريرها على نحو غريب؛ وفجأة ـ مستغرقة في النوم لا تزال ـ ضحكت ضحكة مجلجلة أفزعت «فريدولين». نادى عليها باسمها لاإرادياً. ضحكت من جديد، وكأنها تجيبه، ضحكة غريبة تمامًا، تكاد تكون مخيفة. كرر النداء عليها بصوت أعلى، ففتحت عينيها، ببطء، بمشقة، الآن على اتساعهما، ونظرت إليه نظرة جامدة، وكأنها لم تتعرف عليه.

صاح للمرة الثالثة:

ـ «ألبرتينه»!

في تلك اللحظة فقط بدا أنها تعود إلى وعيها. ظهرت في عينيها ملامح رفض، وخوف، بل رعب. رفعت ذراعيها، بلا هدف، وكأنها يائسة، وبقي فمها مغلقًا.

سألها «فريدولين» بأنفاس متقطعة:

ـ ماذا بكِ؟

ولأنها كانت لا تزال تحدق فيه برعب، أضاف مهدئًا:

ـ أنا «فريدولين» يا «ألبرتينه».

تنفست الصعداء، وحاولت أن تبتسم، وتركت ذراعيها تهبطان على اللحاف، ثم

سألته وكأنها بعيدة تمامًا:

ـ هل طلع الصباح؟

ردَّ «فريدولين»:

ـ على وشك. الساعة تعدت الرابعة. عُدت لتوي إلى البيت.

صمتت، فأكمل قائلًا:

ـ المستشار الملكي تُوفيِّ. كان يحتضر عندما وصلت، ولم أستطع بالطبع أن أترك أقاربه وحدهم وأنصرف على الفور.

أومأت، لكن لم يبدُ عليها أنها سمعته أو فهمته، وراحت تحملق فيه، وكأنها تحملق من خلاله في الفراغ، وشعر وكأنها ـ مع أن هذه الخاطرة ظهرت له عبثية في اللحظة نفسها ـ كانت تعرف ما عايشه في هذه الليلة. انحنى فوقها ولمس جبينها، فأصابتها رعدة خفيفة. سألها ثانية:

ـ ماذا بكِ؟

لم تصدر عنها سوى هزة رأس بطيئة. مسح على شعرها، وسألها مرة أخرى:

ـ «ألبرتينه»، ماذا بكِ؟

جاءه صوتها من بعيد:

ـ كنت أحلم.

سألها برفق:

ـ وبماذا حلمتِ؟

ـ آه، أشياء كثيرة، لا أستطيع التذكر جيدًا.

ـ ربما تستطيعين.

ـ كان حلمًا مشوَّشًا، وأنا متعبة. ولا بد أنك متعب أنت أيضًا؟

ـ مطلقًا، يا «ألبرتينه»، لن أستطيع النوم الآن. تعرفين، عندما أصل إلى البيت متأخرًا هكذا... أكثر التصرفات عقلانية في الحقيقة هو أن أجلس على الفور إلى مكتبي، وخاصة في مثل هذه الساعات الصباحية...

قطع كلامه، ثم استكمل وهو يغتصب ضحكة:

ـ ولكن، ألا تريدين أن تروي لي حلمك؟

أجابت:

ـ بل عليك أن ترقد قليلًا.

تردد لوهلة، ثم لبى رغبتها، وتمدد بجوارها. ولكنه حرص على ألا يلمسها. سيف بيننا، هكذا قال لنفسه متذكرًا ملاحظة قالها شبه هازل في مناسبة مشابهة. ران الصمت عليهما، ورقدا بعيون مفتوحة، وكل منهما يشعر بقرب الآخر، وببعدِهِ. مرت برهة، ثم سند رأسه إلى ذراعه، وتأملها طويلًا، وكأنه يريد أن يرى ما هو أكثر من ملامح وجهها.

قال فجأة مرة أخرى:

ـ حلمكِ!

وبدا كأنها كانت تنتظر هذا الطلب. مدت يدًا تجاهه، فتناولها، وانسياقًا إلى عادة، شبَّك أصابعه حول أصابعها الرشيقة، مشتت الذهن أكثر منه رقيقًا، وكأنه يلاعبها. أما هي فشرعت تروي:

ـ هل ما زلت تتذكر الغرفة في الفيلَّا الصغيرة على بحيرة «فورتر»، حيث كنت أسكن مع والدَيَّ في الصيف قبل خطبتنا؟

أومأ.

ـ هكذا بدأ الحلم، أنني دخلت هذه الغرفة، لا أعرف من أين جئت؛ وكأنني ممثلة

تدخل إلى المشهد. كل ما أعرفه هو أن والديَّ كانا على سفر وتركاني وحيدة. تعجبت لذلك، لأن عرسنا كان في الصباح التالي. لكن فستان الزفاف لم يكن جاهزاً بعد. أم أنني ربما مخطئة؟ فتحت خزانة الملابس لأتأكد، فوجدتُ بدلاً من فستان الزفاف عدداً كبيراً من الملابس الأخرى معلقة، هي أزياء تنكرية في الحقيقة، ثياب أوبرالية، فخمة، شرقية الطراز. تساءلت: أيها ينبغي أن أرتديه في العرس؟ وبغتة انغلقت الخزانة ثانية، أو اختفت، لم أعد أعرف. كانت الإضاءة في الغرفة قوية، لكن الليل خارج النافذة دامس... ثم وقفتَ أنت أمامي على حين غرة، بعد أن أحضرك عبيد في قارب التجذيف، لقد رأيتُهم يختفون في جنح الظلام. كنتَ ترتدي ملابس ثمينة للغاية، تلبس الذهب والحرير، وتضع خنجراً مثبتًا في جانبك بمشبك من الفضة، ثم رفعتني من النافذة وأخرجتني إليك. أعجبني ذلك أيما إعجاب، وكأنني أميرة، ووقفنا في الهواء الطلق في ضياء الشفَق، وكان الضباب الرمادي الرقيق يصل حتى كاحلينا. كانت المنطقة مألوفة لنا: هناك البحيرة، وأمامنا الطبيعة الجبلية، ورأيتُ أيضًا منازل ريفية تنتصب هناك وكأنها خارجة من علبة الألعاب. أما نحن، أنا وأنت، فقد كنا نُحلق، كلَّا، بل نطير فوق الضباب، قلتُ لنفسي: هذه هي إذن رحلة الزفاف. لكننا بعد وهلة لم نعد نطير، بل كنا نمشي على طريق في الغابة يقود إلى «مرتفعات إليزابيت»، وفجأة وجدنا نفسَينا على ارتفاع عالٍ في الجبال في منطقة خالية من الأشجار، مُحاطة بالغابة من ثلاث جهات، وفي الخلفية ينتصب عاليًا جدار صخري مائل. وفوقنا كانت السماء، المرصعة بالنجوم، زرقاء وبعيدة، على نحو غير حقيقي، وكانت هي سقف غرفة الزفاف. أخذتَني بين ذراعيك، وعشقتني عشقًا عظيماً.

قال لها «فريدولين» بابتسامة خبيثة غير مرئية:

ـ آمل أن يكون قد حدث ذلك من جانبك أيضًا.

ردَّت «ألبرتينه» جادة:

ـ أعتقد أن عشقي كان أكبر بكثير. ولكن ـ كيف يمكنني أن أشرح لك ذلك؟ ـ على الرغم من العناق الحار، كانت الكآبة تُغلف وصالنا، وكأننا نحدس بمعاناة يخبئها

لنا القدر. وبغتة طلع الصباح. كان المرج نيراً وملوناً، والندى يغطي الغابة حولنا على نحو رائع، وعلى الجدار الصخري أشعة الشمس ترتعش. أما نحن فكان علينا أن نعود ثانية إلى العالم، إلى البشر، كان الوقت قد أزف. لكن شيئًا فظيعًا حدث. اختفت ثيابنا. تلبسني رعب لا مثيل له، خجل حارق يصل إلى حد تدمير الذات، وفي الوقت ذاته غضب تجاهك، وكأنك وحدك المسؤول عن هذه المصيبة، كل هذا: الرعب، والخجل، والغضب لم يكن من الممكن مقارنته بشيء آخر شعرت به في يقظتي. أما أنت، واعيًا بذنبك، فقد انطلقتَ، كما ولدتك أمك، لكي تهبط إلى السفح وتحضر لنا ثيابًا. وعندما اختفيتَ، أحسستُ بالخفة. لم أشعر تجاهك بالأسف، ولا كنت مهمومة من أجلك، كنت سعيدة فحسب لأني وحدي، فانطلقت في المرج أدندن بنغمة سمعناها في الحفل الراقص. كان صوتي رائعًا، وتمنيتُ أن يسمعني الناس بالأسفل، في المدينة. لم أرَ تلك المدينة، لكني كنت أعرفها. كانت تقع في العمق أسفلي، ويحيط بها سور عالٍ، مدينة ساحرة أعجز عن وصفها. مدينة لا هي بالشرقية، ولا هي في الحقيقة بالألمانية القديمة، تشبه مرةً هذه المدينة، ومرةً تلك، لكنها على كل حال مدينة غارقة منذ زمن طويل، غارقة إلى الأبد. أما أنا فقد تمددتُ فجأة على المرج تحت أشعة الشمس البهية ـ أجمل بكثير مما هي في الواقع ـ وبينما كنتُ أرقدُ هناك أتى من الغابة سيد، شاب يرتدي بذلة عصرية فاتحة اللون، ويبدو على وجه التقريب ـ الآن أعرف ذلك ـ مثل ذلك الدنماركي الذي حكيت لك عنه بالأمس. مضى في طريقه، ثم ألقى تحية مهذبة للغاية عندما مَر بي، لكنه لم يُعرني أي اهتمام آخر. مضى في طريق مستقيم في اتجاه الجدار الصخري، وتفرس فيه بانتباه وكأنه يفكر في كيفية تجاوزه. في الوقت نفسه رأيتك أنت أيضًا. كنتَ تُسرع في المدينة الغارقة من بيت إلى بيت، ومن متجر إلى متجر، مرة في ممرات تعلوها أوراق الشجر، ومرة فيما يشبه البازار التركي، وكنتَ تشتري أجمل ما يمكن أن تشتريه لي: ثيابًا، ملابس داخلية، أحذية، حليًّا؛ وكنت تضع كل ذلك في حقيبة يد صغيرة من الجلد الأصفر حيث وجد كل شيء مكانًا. لكن جمعًا غفيراً من الناس كان يلاحقك دائماً، لم أرَه، لكني سمعت عويله الخافت المهدِّد. مجدداً ظهر الآخر، الدنماركي، الذي وقف أمام الجدار الصخري قبل قليل. مرة

ثانية جاء من الغابة في اتجاهي، أدركتُ أنه في تلك الأثناء كان قد طاف في العالم كله. مظهره مختلف عما قبل، لكنه الشخص نفسه. ظل واقفًا أمام الجدار الصخري مثلما فعل في المرة الأولى، ثم اختفى ثانية، وظهر قادمًا من الغابة مرة أخرى، واختفى، وجاء من الغابة؛ تكرر ذلك مرتين أو ثلاث مرات، أو مئات المرات. كان دائمًا هو الشخص نفسه، ودائمًا شخصًا آخر، وفي كل مرة يُلقي التحية عندما يمر بي، وفي النهاية ظل واقفًا أمامي، ونظر إليَّ متفحصًا، وبإغراء ضحكت، كما لم أضحك في حياتي، فمد ذراعيه في اتجاهي، وفي تلك اللحظة أردت الفرار، لكني لم أستطع، ثم ارتمى على المرج في اتجاهي.

صمتَت. كان حلق «فريدولين» جافًّا، وفي ظلام الحجرة لاحظ أن «ألبرتينه» خبأت وجهها بين كفيها. قال لها:

ـ حلم غريب. هل وصل إلى نهايته؟

لما نفت ذلك، قال لها:

ـ إذن، واصلي الحكاية.

استكملت قائلة:

ـ ليس سهلًا. هذه الأشياء من الصعب صياغتها في كلمات. إذن، شعرتُ كأنني عايشتُ أيامًا وليالي لا تُحصى، لم يعد ثمة مكان ولا زمان، كما لم أعُد في تلك البقعة الخالية من الشجر والمحاطة بالغابة والصخور، كنت في فضاء رحب، لانهائي الاتساع، يزدحم بالزهور الملونة التي تاهت في كل جوانب الأفق. بالإضافة إلى ذلك لم أعُد منذ فترة طويلة ـ غريبة هذه العبارة: «منذ فترة طويلة»! ـ مع ذلك الرجل وحدي في المرج. بدا لي وكأن المكان به عدايَ ثلاثة ثنائيات أخرى، أو عشرة، أو ربما ألف ثنائي من العشاق، ولم أعد أستطيع القول ما إذا كنت أراهم أم لا، وما إذا كنت أنتمي إلى هذا الثنائي أو ذاك. لكن، وكما تعدى الشعور السابق، شعور الرعب والخجل، كل شيء يمكن تصوره في اليقظة، فبالتأكيد ليس هناك في وجودنا الواعي شعور يضاهي الانعتاق والحرية

والسعادة التي شعرتُ بها في الحلم. ومع ذلك لم أتوقف برهة واحدة عن الإحساس بكَ. نعم، رأيتكَ، رأيت كيف أمسكوا بك، أعتقد أنهم كانوا جنوداً، كان بينهم رجال دين أيضًا؛ شخص ما، إنسان عملاق، قيَّد يديك، وعرفتُ أنهم سيعدمونك. عرفتُ ذلك من دون أن أشعر بالشفقة، أو أن تصيبني رعدة، كانت معرفة نائية. قادوك إلى فناء، إلى ما يشبه فناء قلعة. كنتَ تقف هناك عارياً، وبيدين مقيدتين إلى الخلف. ومثلما رأيتكَ، مع أنني كنت أقف في مكان آخر، هكذا كنتَ تراني أيضًا، وكذلك الرجل الذي احتضنني، وكل ثنائيات العشاق الأخرى، هذا الفيضان اللانهائي من العُري الذي كان يحيط بي كالرذاذ ولم نكن، أنا والرجل الذي يلتف حولي، سوى موجة من موجاته. وبينما كنتَ تقف في فناء القلعة، ظهرت عند نافذة مقوسة، بين ستائر حمراء، امرأة شابة في معطف أرجواني، وعلى رأسها تاج. كانت تلك هي الأميرة الحاكمة للبلاد. ألقت في اتجاهك نظرة صارمة متسائلة. كنتَ تقف وحيداً، في حين وقف الآخرون، رغم كثرتهم، في أحد الأركان، مستندين إلى السور، وسمعت غمغمة ووشوشة خبيثة منذرة بالخطر. عندئذٍ انحنت الأميرة فوق الحاجز. عمَّ الصمت، ثم أعطتك الأميرة إشارة كأنها تأمرك بأن تصعد إليها، وعرفتُ عندئذٍ أنها عازمة على العفو عنك. لكنك لم تلحظ نظرتها، أو لم ترد أن تلاحظها. ثم وقفتَ فجأة أمامها، ما زلتَ مقيَّد اليدين، لكنك تتوشح الآن بمعطف أسود، لم تكن في غرفة ما، بل في الهواء الطلق، وكأنك تُحلق. كانت تمسك بيدها ورقة من الرَّق، الحكم بإعدامك، وفيها أيضًا الجرم الذي ارتكبتَه وأسباب الحكم عليك. سألَتك ـ لم أسمع الكلمات، لكني كنت أعرفها ـ ما إذا كنتَ مستعداً لكي تصبح عاشقها، وأنها ستعفو عنك في هذه الحالة. هززت الرأس نافياً. لم أتعجب، كان ذلك عادياً تماماً، ولا يمكن أن يكون غير ذلك، على الرغم من كل المخاطر تحافظ على وفائك لي إلى الأبد. هزت الأميرة منكبيها، وأعطت إشارة في الفراغ، وعلى حين غرة ألفيتَ نفسك في قبو تحت الأرض، ثم انهالت عليك السياط، من دون أن أرى أولئك الذين يضربون بالسياط. انسابت الدماء منك كالغدير، رأيتُها تنساب، وكنتُ أعلم مدى وحشيتي، من دون أن أتعجب من نفسي. ثم خطَت الأميرة في اتجاهك. كان شعرها محلولاً، منساباً على جسدها العاري، وبكلتا يديها قدمت

لك التاج ـ وأدركتُ أنها فتاة الشاطئ الدنماركي التي رأيتَها ذات صباح عارية على شرفة كابينة المصطافين. لم تتفوه بكلمة، لكن مغزى وجودها، بل مغزى صمتها، هو السؤال عما إذا كنتَ تريد أن تُصبح قرينها أو الأمير الحاكم للبلاد. ولأنكَ رفضتَ مجدداً، اختفَت بغتةً، لكني رأيت في الوقت ذاته كيف كانوا ينصبون صليبًا لصلبك ـ ليس في الأسفل، في فناء القلعة، كلَّا، بل على المرج اللانهائي المفروش بالزهور حيث كنت أرقد في أحضان عاشق، بين كل ثنائيات العشاق الأخرى. لكني رأيتك وأنت تخطو وحدك في الحارات العتيقة من دون أي حراسة، وكنتُ أعلم أن طريقك مرسوم، وأن الفرار مستحيل. ها أنت تسير في درب الغابة الصاعد. أنتظرك بتشوق، لكن من دون تعاطف. جسدك مغطى بآثار الجَلد، لكنك لم تَعد تنزف. واصلتَ صعودك، واتسع الطريق، انسحبت الغابة على كلا الجانبين، ثم وقفتَ على حافة المرج، على مبعدة رهيبة تستعصي على الإدراك. لكنك حييتني مبتسمًا بعينيك، وكأنك ترسل إشارة إليَّ أنك لبَّيتَ رغبتي وأحضرت لي كل ما أحتاج إليه: ملابس وأحذية وحُليًّا. لكني وجدتُ سلوكك أحمق إلى أبعد حد، وعبثيًّا، وشعرتُ برغبة في الاستهزاء بك، في أن أضحك في وجهك، ولهذا تحديدًا، لأنك رفضتَ يد الأميرة وفاءً لي، وتحملتَ التعذيب، ثم وصلتَ إلى هناك مثقل الخطو لكي تلقى موتك المريع. عدوتُ في اتجاهك، أنت أيضًا أسرعت الخطو؛ بدأتُ أُحلق، وأنت أيضًا حلَّقت في الأجواء؛ لكننا فجأة افترقنا عن بعضنا البعض، وعرفتُ: لقد تجاوزنا بعضنا بعضًا ونحن نطير. عندئذٍ تمنيت أن تسمع على الأقل ضحكتي، وتحديدًا وهُم يسمِّرونك على الصليب. وهكذا ضحكتُ، ضحكة مجلجلة، بأعلى ما أستطيع. كانت هذه هي الضحكة، يا «فريدولين»، التي استيقظتُ بها.

صمتَت وبقيَت بلا حراك. هو أيضًا لم يحرك ساكنًا، ولم يتفوه بكلمة. أي كلمة كانت ستبدو في هذه اللحظة باهتة، وكاذبة، وجبانة. كلما كانت تتقدم في حكايتها، ظهر له ما عايشه حتى الآن على نحو أكثر سخفًا وتفاهة، وأقسم لنفسه أن يستمر فيه حتى النهاية، ثم يعترف لها مخلصًا، وبهذا ينتقم من هذه المرأة التي كشفت عن جوهرها الحقيقي في الحلم: عديمة الوفاء، وحشية، خائنة؛ اعتقد أنه يكرهها في هذه اللحظة على نحو أعمق مما أحبها يومًا.

لاحظ الآن أنه لا يزال يحيط أصابعها بيديه، وأنه ـ مهما كانت رغبته عظيمة في كراهية هذه المرأة ـ يشعر تجاه هذه الأصابع الرشيقة الباردة، الأليفة بالنسبة إليه، بحنان لم يتغير قَطُّ، لكنه أصبح أكثر إيلامًا؛ ولاإراديًّا، بل رغمًا عن إرادته، وقبل أن يُفلت من يده هذه اليد المألوفة، لمسها بشفتيه لمسًا رقيقًا.

لم تفتح «ألبرتينه» عينيها بعد، واعتقد «فريدولين» أنه يرى كيف نَمَّ فمها وجبهتها، بل كل وجهها، عن ابتسامة تعبر عن السعادة والرضا والبراءة، وشعر هو بدافع، لم يستطع إدراك كنهه، يدفعه إلى الانحناء على «ألبرتينه»، وطبع قبلة على جبهتها الشاحبة. لكنه منع نفسه، عالماً أن مرجع ذلك هو الإرهاق ـ الطبيعي بعد كل أحداث الساعات الأخيرة التي هيجت مشاعره ـ الذي تنكر الآن، في الأجواء المخادعة لفراش الزوجية، في شكل حنان واشتياق.

لكن، مهما كانت حالته في هذه اللحظة، ومهما كانت القرارات التي سيتخذها خلال الساعات المقبلة، فإن اللحظة تفرض عليه بشكل مُلح أن يهرب، لوهلة على الأقل، إلى النوم والنسيان. لقد استغرق في النوم حتى في الليلة التي تلت وفاة أمه، بل استطاع أن ينام بعمق وبلا أحلام، ألا يستطيع أن يفعل ذلك في هذه الليلة؟ تمدد إلى جانب «ألبرتينه» التي بدا أنها قد غفت. سيف بيننا، قال لنفسه مرة أخرى. ثم: مثل عدو لدود يرقد أحدنا بجانب الآخر. لكنها كانت كلمة فحسب.

٦

طرقت الخادمة الباب طرقًا خافتًا أيقظه في السابعة صباحًا. ألقى نظرة سريعة على «ألبرتينه». في بعض الأحيان ـ ليس دائمًا ـ يوقظها مثل هذا الطرق. أما اليوم فقد واصلت النوم بلا حراك، بلا حراك على الإطلاق. تهيأ «فريدولين» بسرعة للخروج. قبل أن ينصرف، أراد أن يُلقي نظرة على ابنته الصغيرة. كانت ترقد بوداعة في فراشها الأبيض، اليدان ـ على عادة الأطفال ـ متشنجتان على شكل قبضتين صغيرتين. قبّلها على جبينها. ثم تسلل مرة أخرى على أطراف أصابع قدميه إلى باب غرفة النوم حيث ما زالت «ألبرتينه» ترقد، ساكنة مثلما كانت. عندئذٍ انصرف. حمل معه حقيبة الأطباء السوداء التي أودع فيها رداء الراهب وقبعة الحجاج. خطط لبرنامج اليوم باعتناء، بل بالغ في ذلك قليلاً. في البداية عاد بالقرب من بيته محاميًا شابًّا يعاني مرضًا عضالاً. فحصه «فريدولين» فحصًا دقيقًا، ووجد أن حالته تحسنت قليلاً، فعبرَّ عن رضاه بسرور مخلص، وكتب على روشتة قديمة الجملة المعتادة بأن يُعاد الدواء. بعد ذلك توجه على الفور إلى المبنى الذي كان «ناختيجال» يعزف البيانو في أعماق قبوه مساء أمس. مـا زال المحـل مغلـقًا، ولكـن فـي المقـهى أعـلاه كـانت الصرَّافة تعـرف أن «ناختيجال» يسكن في فندق صغير في حي «ليوبولدشتات». بعد ربع ساعة كان «فريدولين» هناك. فندق بائس. فاحت في الممر رائحة الأسرَّة سيئة التهوية، والسمن الرديء، والقهوة الرخيصة الزائفة، المصنوعة من الهندباء البرية. موظف الاستقبال سيئ المظهر، تحيط بعينيه الماكرتين خطوط حمراء، ومستعد دائمًا لاستجوابات الشرطة. عن طيب خاطر قدم له المعلومات المطلوبة: السيد «ناختيجال» خرج اليوم في الخامسة فجراً برفقة سيدين كان كل منهما يلف وجهه، ربما عمدًا، بكوفية جعلت التعرف على ملامحهما يكاد يكون مستحيلاً. لما توجه «ناختيجال» إلى حجرته، دفع السيدان فاتورة الأسابيع الأربعة الأخيرة؛ وعندما لم يظهر بعد مرور نصف ساعة، ذهب أحد السيدين شخصيًّا لإحضاره، وبعد ذلك انطلق الثلاثة بالعربة إلى محطة السكك الحديدية «نوردبانهوف». ترك «ناختيجال» انطباعًا بأنه منفعل؛ نعم ـ لمَ لا يقول المرء

الحقيقة كاملة لسيد يثير الثقة هكذا ـ لقد حاول أن يدس رسالة في يد الموظف، لكن السيدين منعاه على الفور. ثم قال السيدان إن الرسائل التي تصل إلى «ناختيجال» سيستلمها شخص مكلف بذلك. استأذن «فريدولين» منصرفًا، وعندما خرج من بوابة المنزل، شعر بالراحة لأنه يحمل في يده حقيبة الأطباء؛ لن يعتقد أحد هكذا أنه يسكن في هذا الفندق، بل قد يظنون أنه موظف رسمي. ليس ممكنًا إذن العثور على «ناختيجال» في الوقت الحالي. كانوا حريصين فعلًا، وبالتأكيد لديهم أسبابهم لذلك.

انطلق الآن بالعربة إلى محل إعارة الأقنعة. فتح السيد «جيبيزر» بنفسه. فقال له «فريدولين»:

ـ لقد جئتُ لأعيد إليك الزي المستعار، وأدفع ديوني.

طلب السيد «جيبيزر» مبلغًا متوسطًا، ثم تناول النقود، وسجل شيئًا في دفتر الحسابات الكبير، وتطلع من مكتبه، متعجبًا بعض الشيء، إلى «فريدولين» الذي لم يبدُ عليه أنه يريد الانصراف. بنبرة قاضي التحقيق أضاف «فريدولين»:

ـ جئت إلى هنا أيضًا لأتحدث قليلًا معك عن الآنسة ابنتك.

شيء ما جعل منخارَي السيد «جيبيزر» يرتعشان ـ ضيقًا أم سخرية أم غضبًا؟ لم يكن من السهل حسم الأمر. وهكذا سأله بنبرة لا يمكن معرفة كنهها:

ـ ماذا يقصد السيد؟

فردَّ «فريدولين»، وهو يستند إلى المكتب بيد منفرجة الأصابع:

ـ قلتَ أمس إن الآنسة ابنتك ليست طبيعية تمامًا من الناحية العقلية. والموقف الذي قابلناها فيه يوحي بهذا الظن فعلًا. ولأن الصدفة جعلتني مشاركًا في ذلك المشهد الغريب، أو على الأقل متفرجًا عليه، فإنني أود أن أوصيك، يا سيد «جيبيزر»، بأن تستشير طبيبًا.

«جيبيزر» ـ الذي كان يمُسك بريشة طويلة طولًا غير طبيعي ويُديرها إلى اليمين

وإلى اليسار ـ تفحص «فريدولين» بنظرة وقحة.

ـ والسيد الدكتور يريد ربما أن يتلطف ويتولى العلاج بنفسه؟

بنبرة حادة، وبصوت مبحوح قليلاً في الوقت ذاته، ردَّ «فريدولين» قائلًا:

ـ من فضلك لا تضع على لساني كلمات لم أنطق بها.

في تلك اللحظة انفتح باب يقود إلى الحجرات الداخلية، وخرج منه شاب بمعطف مفتوح فوق بذلة «فراك». عرف «فريدولين» فورًا أنه ليس إلا أحد القاضيين اللذين ظهرا ليلة الأمس. لا شك، لقد جاء من غرفة المهرِّجة. اندهش لرؤية «فريدولين»، لكنه تمالك نفسه في الحال، وحيا «جيبيزر» تحية سريعة بإشارة من يده، ثم أشعل سيجارة بولاعة كانت موضوعة على المكتب، وغادر الشقة.

ـ آه، فهمت.

قالها «فريدولين» بانفراجة في فمه تنم عن الاحتقار، وبطعم مرير على لسانه.

فسأله «جيبيزر» برباطة جأش تامة:

ـ ماذا يقصد السيد؟

ـ لقد تخليتَ عن ذلك إذن، يا سيد «جيبيزر»...

وبرزانة أرسل نظرة من باب الشقة إلى الباب الآخر الذي دخل منه القاضي:

ـ تخليتَ عن الاتصال بالشرطة.

قال «جيبيزر» ببرود:

ـ وصلنا إلى اتفاق بطريقة أخرى، سيدي الدكتور.

ثم نهض وكأن المقابلة انتهت. همَّ «فريدولين» بالانصراف، وأسرع «جيبيزر» بفتح الباب له، ثم قال بملامح جامدة:

ـ إذا احتاج السيد الدكتور إلى أي شيء آخر... ينبغي ألا يكون بالضرورة رداء راهب.

أغلق «فريدولين» الباب خلفه. انتهيتُ من الأمر هنا، هكذا قال لنفسه بشعور غاضب، بدا له هو نفسه غير متناسب مع الموقف. أسرع يهبط الدرج، ومن دون تعجل سار إلى المستشفى، حيث أجرى عدة اتصالات تلفونية، لا سيما مع البيت ليعرف ما إذا أرسل مريضٌ بطلبه، أو إذا وصلت رسائل، وليعرف آخر الأخبار. ما كادت الخادمة تنهي ردها، حتى وصلت «ألبرتينه» إلى جهاز التلفون وحيَّت «فريدولين». كررت كل ما قالته الخادمة، ثم حكت له بصوت يخلو من الاضطراب أنها استيقظت لتوها، وأنها تريد تناول الفطور مع الطفلة، فقال لها «فريدولين»:

ـ أعطيها قبلة مني، وشهية طيبة لكما.

ترك صوتها أثرًا طيبًا في نفسه، ولهذا تحديدًا أنهى المكالمة بسرعة. كان في الحقيقة يريد أن يسأل عما تنوي «ألبرتينه» فعله خلال الضُّحى، ولكن ما شأنه بذلك؟ في أعماق روحه كانت علاقته بها قد انتهت، مهما استمرت الحياة الظاهرية. ساعدته الممرضة الشقراء في خلع سترته، ومدت يدها بمعطف الأطباء الأبيض. ابتسمت له في أثناء ذلك ابتسامة خفيفة، مثلما اعتدن كلهن الابتسام، سواء اهتم المرء بهن أم لا.

بعد عدة دقائق كان في قاعة المرضى. أبلغهم رئيس الأطباء أنه اضطر فجأة للسفر بسبب عضويته في فريق استشاري طبي، وأن على السادة المساعدين أن يقوموا بعيادة المرضى من دونه. شعر «فريدولين» بالسعادة وهو يتنقل من سرير إلى سرير، يتبعه الطلبة، ويقوم بفحص المرضى، ووصف الدواء، ومناقشة الحالات مع الأطباء المساعدين والممرضات. ثمة أخبار جديدة عديدة. صبي الحَداد «كارل رودل» تُوفي في الليل. تشريح الجثة في الرابعة والنصف بعد الظهر. أصبح سرير شاغراً في قسم النساء، ثم شُغل ثانية. تحتَّم نقل المرأة في سرير ١٧ إلى قسم الجراحة. كما تم التطرق إلى مسائل خاصة بشؤون

الموظفين. سيتقرر بعد الغد مَن سيُختار رئيسًا جديدًا لقسم العيون؛ أفضل الفرص لدى «هوجلمان»، البروفيسور في ماربورج حاليًا، والذي كان قبل أربعة أعوام مجرد مساعد ثانٍ لدى «شتيلفاج». صعود مهني سريع، هكذا قال «فريدولين» لنفسه. لن يفكروا فيَّ أبدًا كرئيس لقسم، على الأقل لأني لا أدرِّس في الجامعة. فات الأوان. لكن، لماذا؟ ينبغي على المرء أن يبدأ ثانية في البحث العلمي، أو أن يتم بعض ما بدأه بجدية أكبر. ما زالت العيادة الخاصة تتيح له وقتًا كافيًا.

طلب من الدكتور «فوكستالر» أن يتولى إدارة قسم الإسعاف، وكان عليه أن يعترف لنفسه أنه كان يفضل البقاء هنا على الذهاب إلى جبل «جاليتسين». لكن لا بد أن يذهب. لم يشعر بالالتزام تجاه نفسه فحسب بأن يواصل البحث والتحري؛ لقد كان هناك الكثير مما ينبغي إنجازه اليوم. ولذلك قرر، وتحسبًا لكل شيء، أن يكلف الدكتور «فوكستالر» بعيادة المرضى في المساء أيضًا. ابتسمت له البنت الشابة في آخر سرير، التي يشتبه بإصابتها بالتهاب رئوي. كانت الفتاة نفسها التي ضغطت ثديها بلا خجل على خده خلال الكشف الطبي مؤخرًا. رد «فريدولين» على نظرتها بقسوة، ومقطبًا جبينه حوَّل وجهه عنها. بمرارة، قال لنفسه: الواحدة تشبه الأخرى، و«ألبرتينه» مثلهن جميعًا، بل هي أسوأهن. سأنفصل عنها. لا يمكن أن ينصلح الحال بيننا أبدًا.

تبادل عدة كلمات على الدرج مع أحد الزملاء من قسم الجراحة. ما وضع المرأة التي نُقلت في الليل إلى القسم؟ عن نفسه، لا يعتقد بضرورة إجراء عملية جراحية. سيخبرونه بنتيجة الفحص الهستولوجي، أليس كذلك؟

ـ بطبيعة الحال، أيها الزميل.

استقل عربة عند الناصية. أخرج دفتر ملاحظاته وكأنه يستشيره؛ تمثيلية هزلية رخيصة أمام الحوذي، وكأن عليه أن يقرر الآن إلى أين يذهب. ثم قال:

ـ إلى «أوتاكرينج»، الشارع المقابل لجبل «جاليتسين». سأقول لك أين يجب عليك الوقوف.

في العربة شعر بغتة، مرة أخرى، بالإثارة المفعمة بالألم والشوق، حتى إنه كاد يشعر بالذنب لأنه لم يفكر تقريبًا في منقذته الجميلة خلال الساعات الأخيرة. هل سينجح الآن في العثور على المنزل؟ لن يكون هذا صعبًا جدًّا. لكن السؤال هو: وماذا بعد؟ بلاغ إلى الشرطة؟ قد يكون لذلك تبعات سيئة تحديدًا بالنسبة إلى المرأة التي ربما ضحت بنفسها من أجله، أو كانت مستعدة لأن تضحي بنفسها من أجله. أم أن عليه التوجه إلى مخبر خاص؟ بدا له ذلك أمرًا أحمق إلى حد ما، ولا يتناسب تمامًا مع مكانته. لكن، ماذا يستطيع أن يفعل غير ذلك؟ لا وقت لديه، وعلى الأرجح لا موهبة، لكي يقوم بالتحريات اللازمة، وبشكل مهني. جماعة سرية؟ هه، على كل حال سرية. ولكن هل يعرفون بعضهم بعضًا؟ أرستقراطيون، أو ربما سادة من حاشية القيصر؟ راح يفكر في نبلاء بعينهم يمكن أن يُنسب إليهم مثل هذه المزحات. والسيدات؟ الأرجح... تم جمعهن من بيوت الدعارة. ليس هذا أكيدًا بأي حال من الأحوال. على كلٍّ، البضاعة مُنتقاة. لكن المرأة التي ضحت بنفسها من أجله؟ ضحت؟ لماذا يُصر على أن يتوهم أنها كانت تضحية حقًّا! تمثيلية هزلية. بالطبع كان الأمر برمته تمثيلية هزلية. عليه في الحقيقة أن يشعر بالسعادة لأنه نجا بهذه البساطة. لقد احتفظ برباطة جأشه. بالتأكيد لاحظ الفرسان أنه ليس مغفلًا. وهي لاحظت ذلك أيضًا. من المرجح أنها فضلته هو على كل أولئك النبلاء، أو أيًّا كان وصف هؤلاء.

هبط في نهاية «ليبهارتستال»، حيث يصبح الطريق صاعدًا بميل كبير، وصرف حوذي العربة توخيًا للحذر. كانت السماء باهتة الزرقة، تسبح فيها سُحب صغيرة بيضاء، والشمس ساطعة في أجواء ربيعية دافئة. ألقى نظرة إلى الخلف، لا شيء يثير الشبهات. لا عربة، لا مشاة. ببطء راح يسير على الطريق الصاعد. شعر بالمعطف ثقيلًا، فخلعه وألقى به على كتفه. وصل إلى المكان الذي يتفرع منه إلى اليمين الشارع الجانبي حيث البيت المفعم بالأسرار. لا يمكن أن يخطئ الطريق؛ الطريق يهبط به، ولكن ليس بذلك الميل الذي بدا له في الليل خلال سير العربة. شارع هادئ. في إحدى الحدائق الأمامية رأى شجيرات ورد مغلفة بعناية بالقش، وفي الحديقة التالية عربة أطفال صغيرة؛ ولد، كل ملابسه من

الصوف الأزرق، يعدو هنا وهناك، ومن نافذة الدور الأرضي امرأة شابة تنظر إليه مبتسمة. عندئذٍ مرَّ بساحة غير مبنية، ثم بحديقة شعثاء محاطة بسور، وبعد ذلك بفيلًّا صغيرة، ثم بساحة يغطيها العشب، والآن، لا شك في ذلك: ها هو المنزل الذي يبحث عنه. لم يبدُ مطلقًا كبيراً أو فخمًا، كانت فيلًّا من طابق واحد مبنية على الطراز الإمبراطوري المتواضع، من الواضح أنها جُددت قبل فترة ليست بالطويلة. كانت الستائر المعدنية الخضراء كلها مسدلة، لا شيء يشير إلى أن أحدًا يسكن في الفيلًّا. نظر «فريدولين» حوله. لم يرَ شخصًا في الشارع؛ بالأسفل كان صبيان يسيران مبتعدَين وتحت إبط كل منهما كتب. وقف أمام باب الحديقة. والآن؟ العودة ببساطة مرة أخرى سيراً على الأقدام؟ سيكون ذلك أمراً مثيراً للسخرية بالنسبة إليه. بحث عن الزر الكهربائي. وإذا فتحوا له، ماذا سيقول؟ سيسأل ببساطة: هل يمكن استئجار هذا البيت الريفي الجميل خلال الصيف؟ لكن باب المنزل انفتح من تلقاء نفسه، وخرج خادم كهل يرتدي معطفًا صباحيًّا بسيطًا، وسار ببطء على المدق الضيق حتى باب الحديقة. كان يمسك برسالة في يده، سلمها صامتًا عبر القضبان إلى «فريدولين»، الذي شعر بخفقان في القلب. سأل بأنفاس متقطعة:

ـ لي؟

أومأ الخادم، ثم استدار ومشى، وانغلق باب المنزل خلفه. تساءل «فريدولين»: ماذا يعني هذا؟ مِنها، في النهاية؟ ربما تكون هي صاحبة البيت؟ بخطوات سريعة عاد إلى الطريق الصاعد، ولاحظ الآن أن اسمه مكتوب على المظروف، بخط وقور مائل. على الناصية فتح الرسالة، وفرد الورقة، ثم قرأ:

توقف عن تحرياتك التي لا فائدة منها مطلقًا، واعتبر هذه الكلمات تحذيراً ثانيًا. نأمل، لصالحك، ألَّا تكون هناك حاجة إلى تحذير آخر.

ترك الورقة تهوي.

أحبطته هذه الرسالة من كل النواحي؛ لقد كانت على كل حال رسالة أخرى، غير تلك التي ـ بحماقة ـ توقعها. على الأقل فإن النبرة متحفظة بشكل لافت، من

دون أي حدة. إنها توحي بأن الذين بعثوا الرسالة لا يشعرون مطلقًا بالأمان.

تحذير ثانٍ؟ كيف؟ نعم، نعم، في الليل وُجه إليه التحذير الأول. لماذا الثاني، وليس الأخير؟ هل يريدون اختبار شجاعته مرة أخرى؟ هل عليه أن يجتاز امتحانًا؟ ومن أين عرفوا اسمه؟ لم يكن هذا بالأمر الغريب، على الأرجح أجبروا «ناختيجال» على أن يشي به. بالإضافة إلى ذلك ـ وجد نفسه يتسم لاإراديًا بسبب تشتت ذهنه ـ فإن اختصار اسمه وعنوانه الدقيق مخيطان على بطانة معطفه ذي الفراء.

حتى وإن لم يحقق تقدمًا في الأمر، لقد هدأته الرسالة عمومًا، من دون أن يستطيع أن يحدد على وجه الدقة: لماذا؟ اقتنع بوجه خاص بأن المرأة التي كان يشعر بالخوف على مصيرها ما زالت على قيد الحياة، وبأن العثور عليها يتوقف عليه هو فحسب، إذا واصل بحثه بحذر ودهاء.

عندما وصل إلى البيت متعَبًا بعض الشيء، ولكن في مزاج صافٍ على نحو غريب ـ وإن شعر في الوقت ذاته أنه مزاج مخادع ـ كانت «ألبرتينه» والطفلة قد تناولتا الغداء، لكنهما جلستا معه لتسليته في أثناء تناوله الطعام. جلست أمامه المرأة التي وَدَّ أن يقتلها في الليلة السابقة، بنظرتها الملائكية، ربة بيت وأم، ولدهشته لم يشعر بأي كراهية تجاهها. استمتع بالطعام، كان مُثارًا بعض الشيء، لكن في الحقيقة في مزاج مرح، وكما تعود راح يتحدث بحيوية شديدة عما مر به خلال اليوم من أحداث صغيرة في العمل، لا سيما فيما يتعلق بوظائف الأطباء، التي اعتاد دائمًا أن يُطلع «ألبرتينه» عليها بدقة. حكى لها أن تعيين «هوجلمان» أصبح شبه مؤكد، وتحدث عن نيته في استكمال أبحاثه العلمية مرة أخرى بنشاط أكبر. كانت «ألبرتينه» تعرف هذه الحالة النفسية، وتعلم أنها لن تستمر طويلًا. ابتسامة خفيفة وشت بشكوكها. انفعلَ «فريدولين»، فمسحت «ألبرتينه» بيد رقيقة على شعره مهدِّئة. ارتعد رعدة خفيفة، ثم التفت إلى الطفلة، هاربًا بجبهته من ملامسات مُحرجة أخرى. وضع الصغيرة على حِجرِه، وكان يهمُّ بأرجحتها على ركبتيه عندما أخبرته الخادمة أن عددًا من المرضى ينتظرونه. نهض «فريدولين» شاعرًا بالخلاص، وذكر عرضًا أن

على «ألبرتينه» والطفلة أن تستفيدا من ساعة العصرية المشمسة الجميلة وأن تذهبا للتمشية، ثم توجه إلى غرفة الكشف الطبي.

خلال الساعتين التاليتين كان على «فريدولين» أن يفحص ستة مرضى قدامى ومريضين جديدين. انهمك في فحص كل حالة: كشف على المريض، ودوَّن ملاحظات، وكتب الدواء. كان مسرورًا لأنه شعر بنفسه مرتاحًا على نحو رائع، وفي حالة ذهنية صافية، مع أنه قضى الليلتين الأخيرتين بلا نوم تقريبًا.

بعد انتهاء فحص المرضى، سأل كعادته عن زوجته وطفلته، ولاحظ برضا أن والدة «ألبرتينه» تزورهما، وأن الصغيرة تتعلم الفرنسية مع الآنسة المعلمة. وعلى الدرج فحسب عاد إليه الوعي بأن كل هذا النظام، وكل هذا الانسجام، وكل ضمانات حياته، ليست سوى مظاهر وأكاذيب.

مع أنه ألغى عيادة المرضى بعد الظهر، فقد شعر بانجذاب لا يقاوم للذهاب إلى المستشفى. هناك حالتان مهمتان بشكل خاص للبحث العلمي الذي يخطط له، وهو يدرسهما منذ فترة دراسة أدق مما كان يفعل سابقًا. بعد ذلك وجب عليه أن يزور مريضًا في وسط المدينة، وهكذا كانت السابعة مساء عندما وقف أمام المنزل القديم في «شرايفوجل-جاسه». عندها فحسب، وهو يتطلع إلى نافذة «ماريانه»، أمست صورتها ـ التي كانت قد شحبت تمامًا ـ أكثر حيوية من كل الصور الأخرى. والآن، لن يُخطئ الهدف. من دون جهد كبير يمكنه أن يبدأ هنا عمله الانتقامي؛ لا صعوبات ستواجهه هنا، لا أخطار. ربما يتراجع آخرون حتى لا يخونوا ثقة العريس، غير أن ذلك لم يكد يعني له سوى دافع إضافي. نعم، الخيانة، والخداع، والكذب، والتمثيل الكوميدي، هنا وهناك، أمام «ماريانه»، وأمام «ألبرتينه»، وأمام الدكتور «روديجر» الطيب، وأمام العالم كله؛ أن يحيا حياة كأنها مزدوجة: أن يكون الطبيب الماهر، الموثوق به، ذا المستقبل الواعد، الزوج المخلص والأب، وفي الوقت نفسه داعرًا، مُغويًا، كلبيًّا، متلاعبًا بالبشر، بالرجال والنساء، كما يحلو له. بدا له ذلك في هذه اللحظة شيئًا ممتعًا للغاية، والممتع فيه أنه، فيما بعد، عندما تستطيب «ألبرتينه» أمان الحياة الزوجية والعائلية الهادئة، سيعترف لها مبتسمًا في برود بكل الذنوب التي

ارتكبها، لكي ينتقم من كل المرارات والإهانات التي سببتها له في أحد أحلامها.

في الممر المؤدي إلى المنزل وجد الدكتور «روديجر» أمامه، مادًّا يده بمودة لا تلوي على شيء. سأله «فريدولين»:

ـ كيف حال الآنسة «ماريانه»؟ هل هدأت قليلًا؟

هز الدكتور «روديجر» كتفَيه:

ـ لقد استعدت لهذه النهاية فترة طويلة كافية، سيدي الدكتور. ولكن، عندما أخذوا الجثة اليوم في الظهيرة...

ـ هل حدث ذلك فعلًا؟

أومأ الدكتور «روديجر».

ـ عصر الغد، في الثالثة، ستُجرى مراسم الدفن...

نظر «فريدولين» أمامه:

ـ بالتأكيد... الأقارب لدى الآنسة «ماريانه»؟

ـ لم يعودوا هناك، هي الآن وحدها. ولا ريب أنها ستُسر برؤيتك يا دكتور. في الغد سنأخذها، أنا وأمي، إلى مودلينج.

سدد له «فريدولين» نظرة متسائلة في تهذيب، فأضاف:

ـ لدى والديَّ هناك بيت صغير. إلى اللقاء يا دكتور. هناك الكثير مما ينبغي عليَّ أن أقوم به. نعم، ما أكثر ما تجلب معها حالات الـ...! آمل أن ألقاك يا دكتور عندما أعود.

وعلى الفور خرج من بوابة المنزل إلى الشارع.

تردد «فريدولين» لوهلة، ثم صعد الدرَج ببطء. دق الجرس، وكانت «ماريانه» هي التي فتحت الباب. كانت ترتدي السواد، وحول العنق عقدًا لم يره من قبل

قَطُّ. احمر وجهها قليلاً.

قالت بابتسامة باهتة:

ـ تتركني أنتظر طويلاً.

ـ معذرة، آنسة «ماريانه»، ولكن يومي هذا كان شاقًّا على نحو خاص.

مشى وراءها إلى الغرفة التي احتضر فيها المتُوفىّ ـ وكان السرير شاغراً ـ ثم إلى الغرفة الجانبية حيث حرر بالأمس شهادة وفاة مستشار القصر تحت صورة الضابط ذي الزي الأبيض. على المكتب أُضيء مصباح صغير نشر في الغرفة نوراً خافتاً. أشارت له «ماريانه» بأن يجلس على الأريكة الجلدية السوداء، في حين جلست هي أمامه عند المكتب.

ـ لقد قابلتُ لتوي السيد الدكتور «روديجر» في ممر المنزل. ستسافرين غدًا إذن إلى الريف؟

تطلعت إليه «ماريانه»، وكأنها تتعجب من نبرة السؤال الباردة، وهبطت كتفاها عندما أكمل بنبرة شبه قاسية:

ـ أرى أن ذلك عقلاني جدًّا.

وراح يشرح بموضوعية كيف أن الهواء الطيب والبيئة الجديدة مناسبان لها.

جلست بلا حراك، وانسالت الدموع على وجنتيها. رآها من دون أن يرق قلبه لها، بل لقد شعر بنفاد صبر؛ تخيلها وهي تركع تحت قدميه في الدقيقة التالية ربما، وتكرر اعتراف الأمس، فامتلأت جوانحه بالخوف. ولأنها صمتت، نهض هو بفظاظة، ثم قال وهو ينظر إلى ساعته:

ـ أنا متأسف جدًّا يا آنسة «ماريانه».

رفعت رأسها ونظرت إلى «فريدولين»، وظلت دموعها تنساب. وَدَّ أن يقول لها كلمة طيبة، لكنه لم يستطع.

بدأ حديثًا متكلفًا:

ـ ستبقين بالتأكيد عدة أيام في الريف. آمل أن تعطيني خبراً... بالمناسبة، السيد الدكتور «روديجر» قال لي إن حفل الزفاف سيُقام قريبًا. اسمحي لي بأن أتقدم لك من الآن بالتهنئة.

لم تحرك ساكنًا، وكأنها لم تسمع تهنئته، أو وداعه عمومًا. مد يده لها، لكنها لم تتناولها، فكرر، بلهجة اتهامية تقريبًا:

ـ آمل إذن، وكلي ثقة بأنك ستعطيني خبراً عن أحوالك. إلى اللقاء، آنسة «ماريانه».

كانت تجلس كالمتحجرة. سار، ثم توقف عند الباب طوال ثانية، وكأنه يمنحها مهلة أخيرة لتناديه كي يعود، ولكن بدا أنها تحول رأسها عنه، والآن انغلق الباب خلفه. في الممر خارج الشقة أحس بما يشبه الندم. وللحظة فكر في أن يعود أدراجه، لكنه شعر بأن ذلك سيكون، أولاً وأخيراً، أمراً سخيفًا للغاية.

والآن؟ إلى البيت؟ إلى أين غير ذلك! لن يستطيع اليوم أن يفعل أي شيء آخر. وغدًا؟ ماذا؟ وكيف؟ شعر بالخيبة وقلة الحيلة، كل شيء كان يفلت من بين يديه؛ كل شيء أضحى غير حقيقي، حتى بيته، وزوجته، وطفلته، ومهنته، نعم، بل حتى هو ذاته وهو يواصل مشيته الآلية شارد الذهن في الشوارع المسائية.

دقت ساعة برج دار البلدية السابعة والنصف. ولكن الساعة لا تعنيه؛ الزمن فائض بلا حساب أمامه. لا شيء ولا أحد يهمه. شعر بشفقة خفيفة تجاه ذاته. جاءه خاطر بشكل عابر تمامًا، من دون نية أو قصد، أن يذهب إلى أي محطة سكك حديدية، وأن يسافر، أيًّا كانت الوجهة، أن يختفي عن أعين كل من يعرفه، وأن يعيش في مكان ما بالغربة، أن يحيا حياة جديدة، كإنسان آخر، جديد. راح يتذكر بعض الحالات المرضية الغريبة التي يعرفها من قراءاته في علم النفس، ما يُطلق عليه «الحياة المزدوجة»: يختفي إنسان فجأة من حياة منظمة ومرتبة، ويفقدون الاتصال به، ثم يرجع بعد شهور أو سنوات، ولا يعود هو نفسه يتذكر

أين قضى هذا الوقت، ثم يتعرف عليه شخص ما قابله في مكان ما، في بلد غريب، ولا يعلم العائد إلى بلده شيئًا عن هذا اللقاء. مثل هذه الحالات تحدث نادرًا بالطبع، لكنها تحدث على كل حال. وبالتأكيد يعيشها البعض على نحو مخفَّف. عندما يعود المرء من الأحلام على سبيل المثال؟ بالطبع، المرء يتذكر... لكنْ، ثمة حقًّا أحلام ينساها المرء كل النسيان، ولا يتبقى منها سوى حالة نفسية مبهمة، نوع من الدوار الغامض. أو أن المرء لا يتذكر إلا متأخرًا، متأخرًا جدًّا، ولا يعود يعرف: هل عايش ذلك، أم أنه حلم فحسب؟ فحسب... فحسب!

وهكذا واصل المسير، ولاإراديًّا مشى في اتجاه شقته، ووجد نفسه بالقرب من ذلك الشارع المظلم، المشبوه إلى حدٍّ ما، حيث سار قبل أقل من أربع وعشرين ساعة وراء مخلوقة ضائعة، إلى مسكنها البائس واللطيف في الوقت ذاته. «ضائعة»، هذه المخلوقة تحديدًا؟ وتحديدًا هذا الشارع «مشبوه»؟ كيف ينساق المرء، مرة بعد أخرى، وراء كلمات، وينساق إلى العادة الكسولة ويطلق صفات على شوارع وأقدار وبشر، ويحكم عليها! ألم تكن هذه الفتاة في واقع الأمر، وبين كل تلك المصادفات الغريبة التي قابلته في الليلة الماضية، هي ألطف الكائنات، بل أنقاها؟ شعر ببعض التأثر عندما فكر فيها. والآن تذكر أيضًا ما نوى بالأمس أن يفعله: بسرعة وحسم اشترى من أقرب محل ألوانًا من الطعام، وعندما سار بمحاذاة جدران البيوت حاملًا العلبة الصغيرة، شعر بالبهجة لأنه كان يهم بفعل شيء على الأقل عقلاني، وربما حتى يستحق المديح. على كل حال، رفع الياقة عاليًا عندما دخل ممر المنزل، وارتقى عدة درجات مرة واحدة. اقتحم أذنه رنين جرس الشقة بعنف غير مرغوب؛ وعندما قالت له امرأة بائسة المظهر إن الآنسة «ميتسي» ليست بالبيت، تنفس الصعداء. ولكن قبل أن تُتاح للمرأة فرصة تناول العلبة نيابة عن الغائبة، اقتربت من المدخل امرأة أخرى، ما زالت شابة، وليست بالقبيحة، ملتفة بما يشبه روب الحمام، وقالت:

ـ عمن يبحث السيد؟ الآنسة «ميتسي»؟ لن تعود سريعًا إلى البيت.

أعطتها العجوز إشارة كي تصمت؛ أما «فريدولين»، وكأنه يتمنى الحصول بشكل ملح على تأكيد لما راوده بشكل ما، فقال ببساطة:

ـ هي في المستشفى، أليس كذلك؟

صاحت الفتاة بصوت مرح:

ـ إذن، السيد يعرف. لكنني سليمة، والحمد لله.

ثم اقتربت للغاية من «فريدولين» بشفتين شبه مفتوحتين. بوقاحة كانت تتبختر بجسدها الممتلئ حتى إن الروب انفتح. قال «فريدولين» صاداًّ:

ـ لقد مررت من هنا وصعدتُ لكي أحضر هذه الأشياء لـ«ميتسي».

شعر بنفسه فجأة كأنه تلميذ في المرحلة الثانوية. فأضاف سؤالًا بنبرة جديدة، أكثر موضوعية:

ـ في أي قسم بالمستشفى هي؟

ذكرت له الفتاة اسم البروفيسور الذي كان «فريدولين» يعمل لديه كطبيب مساعد قبل عدة سنوات. ثم أضافت بنبرة ودود:

ـ أعطني العلبة، سأوصلها إليها في الغد. تستطيع أن تثق بأنني لن ألتهم منها شيئًا. وسوف أنقل تحياتك إليها، وسأقول لها إنك لم تخنها.

في الوقت ذاته اقتربت منه، وضحكت له. وعندما تراجع قليلًا، توقفت على الفور وقالت بنبرة معزية:

ـ خلال ستة أسابيع، وعلى الأقصى ثمانية، ستكون في البيت، كما قال الدكتور.

عندما خرج «فريدولين» من بوابة البيت إلى الشارع، شعر برغبة في البكاء، لكنه كان يعرف أن هذا لا يعني تأثرًا، بقدر ما يعني فشلًا تدريجيًّا في جهازه العصبي. تعمد أن يخطو خطوة أسرع وأكثر حيوية مما تسمح به حالته النفسية. هل هذه إشارة أخرى، إشارة أخيرة، إلى أنه أخفق في كل شيء؟ لماذا؟ من الممكن أيضًا أن تعني نجاته من خطر كبير كهذا إشارة جيدة. ولكن، هل هذا هو المهم: النجاة من المخاطر؟ مخاطر عديدة أخرى ما زالت في انتظاره بالتأكيد. لم يكن

يفكر مطلقًا في أن يتخلى عن تحرياته بشأن المرأة الرائعة التي قابلها في الليلة الماضية. ولكن لم يعد ثمة وقت لذلك بالطبع. كما أن عليه أن يفكر بدقة في كيفية استمراره في تحرياته. نعم، لو كان لديه أحد يستطيع استشارته! لكنه لا يعرف أحدًا يود إطلاعه على مغامرة الليلة الفائتة. منذ سنوات لم تعد تربطه علاقة ألفة حقيقية بأحد، فيما عدا زوجته، وهو لا يستطيع أن يتشاور معها في هذه الحالة، لا في هذه الحالة ولا في أي حالة أخرى. سيان، كيف ينظر المرء إلى الأمور: في الليلة الماضية تركته يُسمَّر على الصليب.

وعندها عرف لماذا لم تأخذه خطواته في اتجاه البيت، بل قادته لاإراديًّا في الاتجاه العكسي. لم يكن يريد أن يقابل «ألبرتينه» الآن. إن أكثر الأشياء عقلانية في الوقت الحالي هو أن يتناول عشاءه في أي مكان خارج البيت، ثم يذهب إلى المستشفى لمتابعة الحالتين اللتين يشرف عليهما؛ وعدم الذهاب بأي حال من الأحوال إلى البيت ـ «البيت»! ـ قبل أن يضمن أن «ألبرتينه» قد استغرقت في النوم.

دخل مقهى، أحد المقاهي الراقية والهادئة القريبة من دار البلدية، واتصل بالبيت، وأخبرهم ألا ينتظروه على طعام العشاء، ووضع السماعة بسرعة حتى لا يعطي «ألبرتينه» فرصة الذهاب إلى التلفون، ثم جلس إلى جانب النافذة، وشدَّ الستارة. في ركن قصي جلس رجل، كان يرتدي معطفًا داكنًا، ولا تلفت ملابسه النظر في شيء. تذكر «فريدولين» أنه رأى هذه السحنة خلال اليوم في مكان ما. قد تكون مصادفة بالطبع أيضًا. تناول صحيفة مسائية وراح يقرأ، مثلما فعل في ليلة الأمس في المقهى الآخر، بعض السطور هنا وهناك: تقارير عن أحداث سياسية، مسرح، فن، أدب، وعن حوادث صغيرة وكبيرة من كل نوع. احترق أحد المسارح في مدينة من مدن أمريكا، لم يسمع بها من قبل قَطُّ. ألقى «بيتر كوراند»، المختص بتنظيف المداخن، بنفسه من النافذة. بدا الأمر لـ«فريدولين» غريبًا على نحو ما، أن ينتحر أحيانًا منظفو المداخن أيضًا، وتساءل رغمًا عنه ما إذا كان الرجل قد اغتسل قبلها بعناية، أم أنه ـ بكل سواده ـ قد ألقى بنفسه في الفراغ. في أحد الفنادق الراقية في وسط المدينة قامت امرأة فجر

اليوم بتسميم نفسها، وهي سيدة كانت قد نزلت في الفندق قبلها بأيام قليلة تحت اسم «البارونة د.»، سيدة لافتة الجمال. على الفور شعر «فريدولين» وحدس أن الأمر يمسه. عادت السيدة إلى الفندق في الرابعة فجراً برفقة سيدين ودَّعاها عند الباب. الرابعة فجراً. في تلك الساعة التي عاد فيها هو أيضًا إلى بيته. قرابة الظهيرة وجدت في فراشها غائبة عن الوعي ـ هكذا جاء في التقرير ـ مع وجود أعراض تسمم شديد... سيدة شابة لافتة الجمال... ثمة بعض السيدات الشابات لافتات الجمال. لم يكن هناك داعٍ للاعتقاد بأن «البارونة د.»، أو بالأحرى السيدة التي نزلت في الفندق تحت اسم «البارونة د.»، هي تلك المرأة الأخرى نفسها. ومع ذلك، دق قلبه، واهتزت الصحيفة في يده. في أحد الفنادق الراقية بالمدينة... في أي فندق؟ لماذا هذا الغموض؟ ولماذا هذا التكتم؟

هوت الصحيفة من يده، ولاحظ أن السيد في الركن القصي يرفع، في الوقت ذاته تقريبًا، صحيفة، صحيفة مصورة كبيرة، أمام وجهه كأنها ستارة. على الفور تناول «فريدولين» الصحيفة مرة أخرى، وعرف في تلك اللحظة أن «البارونة د.» لا يمكن أن تكون سوى تلك المرأة التي قابلها في ليلة الأمس... في أحد الفنادق الراقية بالمدينة... ليس هناك عدد كبير من الفنادق ينطبق عليه الوصف... بالنسبة إلى «بارونة د.»... والآن، فليحدث ما يحدث، لا بد من اقتفاء هذا الأثر. نادى على النادل، ودفع، وانصرف. عند الباب التفت ثانية ناحية الرجل المثير للشبهات في الزاوية. غير أن الرجل ـ وللعجب ـ كان قد اختفى...

تسمم شديد... لكنها كانت لا تزال تحيا... في لحظة العثور عليها كانت لا تزال تحيا. وليس هناك سبب، في نهاية المطاف، للاعتقاد بأنه لم يتم إنقاذها. على كل حال، سواء كانت حية أو ميتة، سيعثر عليها. وسيراها، في كل الأحوال، سواء حية أو ميتة. سيراها؛ لن يستطيع إنسان على الأرض منعه من رؤية المرأة التي بسببه، نعم، من أجله ذهبت لملاقاة الموت. إنه يتحمل مسؤولية موتها ـ هو وحده ـ إذا كانت هي. نعم، إنها هي. في الرابعة فجراً عادت إلى الفندق برفقة سيدين! من المرجح أن يكونا هما السيدين أنفسهما اللذين أحضرا «ناختيجال» بعدها بساعات إلى محطة القطار. صحيفتهما ليست بيضاء تمامًا،

هذان السيدان.

وقف في الساحة الكبيرة الرحبة أمام مبنى دار البلدية، مرسلًا النظر إلى كل الجهات. لم يجد سوى عدد قليل من الناس في مجال بصره، ليس بينهم الرجل المثير للشبهات الذي كان يجلس في المقهى. وحتى لو كان... السادة يشعرون بالخوف، وهو في وضع الأقوى. واصل «فريدولين» خطواته مسرعًا، وفي شارع «رينج» استقل عربة، وأمر الحوذي أولًا بالذهاب إلى فندق «بريستول»، وهناك سأل موظف الاستقبال، وكأن لديه صلاحيات تخوِّل له ذلك أو أنه كُلف بالأمر، عما إذا كانت السيدة «البارونة د.» ـ التي سممت نفسها صباح اليوم كما هو معروف ـ قد سكنت في هذا الفندق. لم يبدُ الاندهاش على البواب، وربما اعتبر «فريدولين» رجلًا من الشرطة أو من جهة أخرى رسمية، على كل حال أجاب الرجل بأدب أن هذه الحادثة الحزينة لم تحدث هنا بل في فندق «الأرشيدوق كارل»...

انطلق «فريدولين» في الحال إلى الفندق المذكور، وهناك حصل على معلومات تفيد بأن «البارونة د.» قد نُقلت فور العثور عليها إلى المستشفى العام. استعلم «فريدولين» عن كيفية اكتشاف محاولة الانتحار. لماذا سألوا في الظهيرة عن سيدة لم ترجع إلى غرفتها إلا في الرابعة فجرًا؟ الأمر بسيط جدًّا: لقد سأل سيدان (مرة أخرى سيدان!) عنها نحو الساعة الحادية عشرة. ولأن السيدة لم ترد على اتصالات تلفونية متكررة، دقت الفتاة التي تنظف الغرف بابها؛ ولأنها لم تسمع أي رد فعل، والباب ظل موصدًا بالترباس من الداخل، لم يتبقَّ أمامهم سوى كسر الباب عنوة. عندئذٍ وجدوا البارونة راقدة في فراشها، غائبة عن الوعي. في التو تم الاتصال بالإسعاف والشرطة.

فسأله «فريدولين» بلهجة حادة، جعلته يشعر هو نفسه بأنه يتصرف مثل رجال الشرطة السرية:

ـ وماذا عن السيدين؟

نعم، كان ذلك أمرًا مثيرًا للتفكير بالطبع، إذ إنهما اختفيا. على كل حال، لم تكن

السيدة بالتأكيد هي «البارونة دوبيسكي»، وهو الاسم الذي سجلت السيدة نفسها تحته. لقد نزلت في هذا الفندق للمرة الأولى، وليست هناك عائلة تحمل هذا الاسم مطلقًا، ليست من النبلاء على كل حال.

شكره «فريدولين» على المعلومات، ثم ابتعد مسرعًا لأن أحد مديري الفندق اقترب منهم لتوه وبدأ يتفحصه بفضول غير مريح. صعد إلى العربة وأمر الحوذي بالذهاب إلى المستشفى. بعد دقائق معدودة، وفي قسم الاستقبال بالمستشفى، لم يعلم فحسب أن البارونة المزعومة «دوبيسكي» نُقلت إلى المستشفى الثاني لأمراض الباطنة، بل عرف أيضًا أنها في الخامسة عصرًا، على الرغم من كل الجهود الطبية ـ ومن دون أن تعود إلى الوعي ثانية ـ قد فارقت الحياة.

أخذ «فريدولين» نفسًا عميقًا، هكذا ظن، لكن في الحقيقة انفلتت منه زفرة ثقيلة. تطلع الموظف المناوب إليه ببعض الدهشة، فتمالك «فريدولين» نفسه ثانية، وبتهذب استأذن منصرفًا، وفي الدقيقة التالية كان يقف في الهواء الطلق. كادت حديقة المستشفى تخلو من البشر. في شارع مجاور، وتحت أحد الفوانيس، كانت مشرفة تسير بزيِّها المخطط بالأزرق والأبيض وغطاء الرأس الأبيض. ماتت، هكذا قال «فريدولين» لنفسه. إذا كانت هي الشخص نفسه. وإذا لم تكن؟ إذا كانت لا تزال تحيا، كيف يمكنه العثور عليها؟

أمكنه بسهولة الإجابة عن السؤال الخاص بمكان وجود جثة المرأة المجهولة الآن. لأنها ماتت قبل ساعات قليلة، فهي على كل حال في قاعة الجثث التي لا تبعد عن هنا سوى بضع مئات من الخطوات. ولن يواجه بالطبع صعوبات، باعتباره طبيبًا، في الدخول إلى هناك، حتى في هذه الساعة المتأخرة. لكن، ماذا يريد من هناك؟ إنه يعرف جسدها فحسب، لم يرَ وجهها قَطُّ، لم يستطع إلا أن يختطف بصيصًا في تلك الثانية التي غادر فيها ليلة أمس قاعة الرقص، أو، على الأصح، عندما طُرد من القاعة. كونه لم يفكر حتى الآن في ذلك، يرجع إلى أنه طوال كل هذه الساعات الفائتة، منذ أن قرأ الخبر في الجريدة، كان يتخيل المنتحرة، التي لم يرَ وجهها، بملامح «ألبرتينه»، نعم، لقد كانت زوجته ـ هذا ما

عرفه الآن وهو يرتعد ـ تتراءى له طوال الوقت في هيئة المرأة التي يبحث عنها. مرة أخرى تساءل عما يريده حقًّا من قاعة الجثث. نعم، لو كان قابلها ثانية حية، اليوم، في الصباح ـ أو بعد سنوات، أيًّا كان الوقت والمكان والظرف ـ لكان تعرف عليها من دون أي شك، هكذا كان مقتنعًا، من مشيتها ووقفتها، ومن صوتها على وجه الخصوص. والآن، لن يرى إلا جسدها، جسد امرأة ميتة، ووجهها لا يعرف منه سوى العينين، العينين المغلقتين الآن. نعم، يعرف هاتين العينين، والشعر الذي انحلَّ فجأة وغطى قوامها العاري في اللحظة الأخيرة قبل طرده من القاعة. هل يكفي هذا لكي يعرف على نحو يقيني ما إذا كانت هي أم لا؟

ببطء، وبخطوات مترددة، مشى في الطريق إلى معهد الباثولوجيا والتشريح، مخترقًا الأفنية المألوفة له. وجد البوابة غير موصدة بالترباس، ولذا لم يكن بحاجة إلى قرع الجرس. دوت خطواته على الأرض الحجرية عندما سار في الممر ضعيف الإضاءة. أحاطت بـ«فريدولين» رائحة معهودة تكاد تثير حنينًا، مكونة من كل الأنواع الممكنة من المواد الكيميائية، غطت على الرائحة الأصلية للمبنى. دق باب قاعة «الهيستولوجيا» حيث ظن أن أحد المساعدين لا يزال يعمل هناك. بعد أن سمع كلمة «ادخل» المتذمرة بعض الشيء، دخل «فريدولين» القاعة ذات السقف العالي، والمضاءة على نحو يكاد يكون احتفاليًّا، وفي منتصفها نهض من كرسيه زميله القديم في الدراسة، المساعد في المعهد، الدكتور «آدلر»، وهو يُبعد عينيه عن المجهر، مثلما توقع «فريدولين» تقريبًا.

ـ أوه، الزميل العزيز!

حيَّاه الدكتور «آدلر»، ممتعضًا لا يزال، ومتعجبًا في الوقت نفسه:

ـ ماذا جلب لي هذا الشرف في هذه الساعة غير المعتادة؟

رد «فريدولين»:

ـ معذرة على الإزعاج. أنت منهمك في عملك.

رد «آدلر» بنبرته الحادة، المميزة له منذ زمن الرابطة الطلابية:

ـ بالفعل.

وبنبرة أخف أضاف:

ـ وماذا يفعل المرء غير العمل في هذه القاعات المقدسة قرابة منتصف الليل؟ لكنك بالطبع لا تزعجني أدنى إزعاج. ما الخدمة التي أستطيع أن أقدمها لك؟

ولأن «فريدولين» لم يُجب مباشرة، أضاف:

ـ السيد «أديسون» الذي وردتموه لنا اليوم يرقد هناك من دون أن تمسه يد. التشريح غدًا صباحًا في الثامنة والنصف.

وعقب حركة نافية من «فريدولين»، واصل قائلًا:

ـ آه، الورم في الحجاب الحاجز! لقد أسفر الفحص «الهيستولوجي» بشكل قاطع عن وجود ورم خبيث. لستم بحاجة إذن إلى أن تحملوا الهم بسبب ذلك.

هز «فريدولين» رأسه ثانية:

ـ الأمر لا يدور حول موضوع مهني.

ـ أحسن وأحسن، لقد اعتقدت أن وخزات ضميرك دفعت بك إلى هنا في هذا الوقت الذي ينام فيه الجميع.

رد «فريدولين»:

ـ للأمر علاقة بوخزات الضمير، أو بالضمير عمومًا.

ـ أوه!

بذل «فريدولين» جهدًا ليتحدث بنبرة جافة عادية:

ـ باختصار، أود أن أستعلم عن امرأة توفيت مساء اليوم في المستشفى الثاني

من جراء التسمم بالمورفين، وهي ترقد الآن هنا، امرأة تدعى «البارونة دوبيسكي».

وبسرعة استكمل كلامه قائلًا:

ـ أظن أن البارونة المزعومة «دوبيسكي» هي امرأة عرفتُها قبل سنوات معرفة عابرة. ويثير اهتمامي أن أعرف ما إذا كان ظني صحيحًا.

سأله «آدلر» باللاتينية:

ـ «سويسيديوم»؟

أومأ «فريدولين».

ـ نعم. انتحار.

قالها مترجمًا، وهو يأمل في أن يمنح الأمر بذلك صفة شخصية مرة أخرى.

بمرح أشار «آدلر» بسبابته المفرودة إلى «فريدولين»:

ـ الحب الضائع مع سعادتكم؟

ببعض الغيظ نفى «فريدولين»:

ـ انتحار «البارونة دوبيسكي» هذه، ليس له أدنى علاقة بشخصي.

ـ آسف، آسف، لا أريد أن أكون متطفلًا. يمكننا أن نتأكد من ذلك في الحال. على حد علمي لم يصل إلينا أي طلب مساء اليوم من الطب الشرعي. على كل حال...

تشريح على يد الطبيب الشرعي، هذا ما جال بخاطر «فريدولين». لا بد أن هذه هي الحال. مَن يعرف ما إذا كان انتحارها اختياريًّا من الأساس؟ وتذكر مرة ثانية السيدين، اللذين اختفيا من الفندق فجأة بعد أن عرفا بمحاولة الانتحار. قد يتطور الموضوع إلى فضيحة جنائية من الدرجة الأولى. هل سيُدعى هو ـ «فريدولين» ـ كشاهد؟ أليس في الحقيقة ملزَمًا بأن يطلب طواعية من المحكمة

الاستماع إلى أقواله؟

سار خلف الدكتور «آدلر» في الممر المؤدي إلى الباب المقابل الموارب. كانت القاعة الجرداء ذات السقف العالي مضاءة إضاءة خافتة عبر شعلة ضعيفة صادرة عن مصباح ذي ذراعين يعمل بالغاز. من بين الطاولات الاثني عشرة أو الأربع عشرة لم يكن هناك سوى عدد قليل عليه جثث. تمددت بعض الأجساد عارية، والبعض الآخر كان مُغطى بملاءة كتانية. سار «فريدولين» إلى الطاولة الأولى بجوار الباب، وبحذر سحب الملاءة عن رأس الجثة. وفجأة سقط ضوء ساطع من الكشاف الكهربائي الصغير في يد الدكتور «آدلر». رأى «فريدولين» وجهًا أصفر لرجل ذي لحية رمادية، فغطاه على الفور بالملاءة. على الطاولة التالية رقد جسد غلام عارٍ نحيف. قال الدكتور «آدلر» من مكانه عند طاولة أخرى:

ـ امرأة بين الستين والسبعين لن تكون بالتأكيد هي المقصودة أيضًا.

لكن «فريدولين»، وكأنه شعر فجأة بالانجذاب، خطا إلى نهاية القاعة حيث سقط ضوء شاحب أمامه على جسد أنثوي. كان الرأس مائلًا إلى الجانب، وتدلت حتى الأرضية تقريبًا خصلات شعر طويلة وداكنة اللون. لاإراديًّا مد «فريدولين» يده لكي يعدل وضع الرأس، لكنه فعلَ ذلك متهيبًا، وهو أمر غريب عليه كطبيب، وهكذا تردد ثانية. كان الدكتور «آدلر» قد اقترب منه، وقال مشيراً خلفه:

ـ لا تنطبق المواصفات على أحد منهم. ماذا عن هذه؟

بالمصباح الكهربائي سلط الضوء على رأس امرأة، فأمسك به «فريدولين» بكلتا يديه متغلبًا على حيائه، ثم رفعه قليلًا. حدق فيه وجهٌ أبيض بجفنَين شبه مغلقين. تهدل الفك السفلي، الشفة العليا المرفوعة كشفت عن لثة مائلة إلى الزرقة وصف من الأسنان البيضاء. هل كان هذا الوجه يومًا، هل كان ربما بالأمس ما زال جميلًا؟ لم يستطع «فريدولين» أن يحسم أمره؛ كان وجهًا فارغًا، تافهًا تمامًا، وجهًا ميتًا. كان من الممكن أن يكون وجه فتاة في الثامنة عشرة من عمرها، وكذلك لامرأة في الثامنة والثلاثين.

سأله الدكتور «آدلر»:

ـ هل هي؟

لاإراديًّا انحنى «فريدولين» أكثر، وكأن باستطاعة نظرته الثاقبة أن تنتزع إجابة من الملامح الجامدة. لكنه عرف في الوقت نفسه، أنه حتى لو كان هذا هو وجهها فعلًا، وكانت عيناها هما العينان اللتان كانتا بالأمس تلمعان وتنظران إليه نظرة مفعمة بالحيوية، لن يعرف، ولن يستطيع، ولا يريد في نهاية الأمر أن يعرف مطلقًا. برفق وضع الرأس ثانية على اللوح، وراح يتنقل ببصره على الجسد الميت، متبعًا في ذلك الشعاع المتجول من المصباح الكهربائي. هل هذا جسدها؟ الجسد الرائع، اليانع، الذي كان بالأمس فحسب يشتهيه اشتهاء معذِّبًا؟ رأى عنقًا أصفر ممتلئًا بالتجاعيد، وثديي فتاة صغيرين، وإن كانا متهدلين قليلًا، وبينهما، وكأن التحلل قد بدأ، عظم القص الذي بان بوضوح فظيع من تحت الجلد الشاحب؛ رأى استدارة أسفل البطن ذات اللون البني الشاحب؛ رأى ـ وكأنه يتطلع من خلف ظل داكن، أصبح غامضًا وعبثيًّا ـ فخذين متناسقتي التكوين تنفتحان بلامبالاة؛ رأى تكور الركبة التي استدارت بهدوء إلى الخارج، والحواف الحادة لقصبتي الساقين، والقدمين الرشيقتين بالأصابع المثنية إلى الداخل. كل هذا غاص في الظلام، بالتتابع وبسرعة، لأن القمع الضوئي الصادر من المصباح الكهربائي سار في طريقه عائدًا بسرعة كبيرة، إلى أن استقر في النهاية، وهو يهتز اهتزازًا خفيفًا، على الوجه الشاحب. لاإراديًّا، وكأن سلطة قاهرة غير مرئية تدفع «فريدولين»، لمس بكلتا يديه جبهة المرأة الميتة ووجنتيها وكتفيها وذراعيها؛ ثم شبك أصابعه بأصابع الميتة، وكأنه يغازلها، ومع أنها كانت متيبسة، فقد بدا له أنها تحاول أن تتحرك، وأن تمسك بأصابعه؛ نعم، لقد شعر وكأن نظرة بعيدة شاحبة تحت الجفنين شبه المغلقين تهيم باحثة عن عينيه؛ فانحنى عليها وكأنه مجذوب انجذابًا مغناطيسيًّا.

فجأة سمع همسًا خلفه:

ـ ولكن، ماذا تفعل؟

عاد «فريدولين» بغتة إلى وعيه. خلص أصابعه من أصابع الميتة، ثم أطبق على معصمها النحيف، وبعناية، بل بنوع من الدقة المبالغ فيها، وضع الذراع الباردة برودة ثلجية إلى جانب جذعها. بالنسبة إليه كانت هذه المرأة قد توفيت في هذه اللحظة. ثم أعرض عنها، وتوجه ناحية الباب، وعبر الممر حيث دوَّت خطواته، عائدًا إلى غرفة العمل التي غادرها من قبل. سار الدكتور «آدلر» خلفه صامتًا، وأوصد الباب بالترباس.

مشى «فريدولين» إلى الحوض.

ـ بعد إذنك.

قالها وهو ينظف يديه بعناية بمطهر «الليسول» والصابون. في تلك الأثناء بدا أن الدكتور «آدلر» يريد أن يواصل على الفور ما بدأه من عمل. أضاء المصباح الكهربائي فوق طاولة العمل، ثم أدار «الميكروميتر» ناظرًا في المجهر. عندما اقترب «فريدولين» من الدكتور «آدلر» ليودعه، كان الأخير مستغرقًا في عمله كل الاستغراق.

سأله:

ـ هل تريد أن ترى العينة مرة أخرى؟

فسأله «فريدولين» شاردًا:

ـ لماذا؟

أجابه الدكتور «آدلر»، وكأنه يعتقد أن زيارة «فريدولين» لم يكن لها سوى غرض علمي طبي:

ـ فقط لتهدئة ضميرك.

ثم سأل «فريدولين»، الذي راح ينظر في المجهر:

ـ هل الأمر واضح لك؟ إنها طريقة صباغة جديدة نسبيًّا.

أومأ «فريدولين» من دون أن يرفع عينه عن العدسة، ثم قال:

ـ الصورة تكاد تكون مثالية. من الممكن القول إنها صورة رائعة الألوان.

ثم استعلم عن تفصيلات عدة في التقنية الجديدة.

أمده الدكتور «آدلر» بالمعلومات المطلوبة، فعبرَّ «فريدولين» عن ظنه بأن هذه الطريقة الجديدة ستؤدي له خدمات كثيرة في العمل الذي ينوي القيام به في الفترة المقبلة. واستأذنه في العودة غدًا أو بعد الغد لمعرفة مزيد من التفاصيل.

ـ دائمًا في الخدمة.

قالها الدكتور «آدلر»، ثم رافق «فريدولين» عبر الممر الحجري ذي الصدى حتى وصلا إلى البوابة الخارجية التي كانت موصدة الآن، ففتحها بمفتاحه. سأله «فريدولين»:

ـ ستبقى هنا؟

ـ نعم بالطبع، إنها أجمل ساعات العمل، من منتصف الليل تقريبًا حتى الفجر. على الأقل يكون المرء بمأمن نسبي عن الإزعاج.

ـ إذن...

قالها «فريدولين» بابتسامة واهنة، تكاد تعبرِّ في الوقت ذاته عن شعوره بالذنب.

وضع الدكتور «آدلر» يده على ذراع «فريدولين» مهدئًا، ثم سأل ببعض التحفظ:

ـ إذن، هل كانت هي؟

تردد «فريدولين» للحظة، ثم أومأ بلا كلمات، لا يكاد يعي أن هذا التأكيد يعني ربما الكذب. هل المرأة الراقدة الآن في قاعة الموتى هي نفسها المرأة التي احتضنها عارية على أنغام «ناختيجال» المتوحشة قبل أربع وعشرين ساعة؟ أم أن المتوفاة هي امرأة أخرى، مجهولة، غريبة تمامًا، لم يقابلها قَطُّ؟ كان يعلم:

حتى لو كانت المرأة لا تزال حية، المرأة التي يبحث عنها، التي يشتهيها، التي عشقها ربما طوال ساعة، وواصلت حياتها كالمعتاد، ما يرقد خلفه في القاعة ذات السقف المقوس، في ضوء شعلة الغاز المهتزة، لم يكن سوى خيال بين خيالات أخرى، خيال مظلم، بلا معنى ولا غموض، مثلها... كان ذلك يعني بالنسبة إليه، بل لم يكن من الممكن أن يعني له غير أن مصيرها هو التحلل والفناء، لم يكن من الممكن أن يعني له سوى جثة شاحبة، جثة الليلة الماضية.

٧

أسرع الخطى عبر الشوارع الكئيبة الخالية من البشر، وبعدها بعدة دقائق، وبعد أن خلع ملابسه في غرفة الكشف الطبي، ومثلما فعل قبل أربع وعشرين ساعة، دخل غرفة الزوجية على أطراف أصابعه.

سمع صوت تنفس «ألبرتينه» الهادئ المنتظم، ورأى الخطوط الخارجية لرأسها مطبوعة على الوسادة اللينة. غمر قلبه شعور بالحنان، نعم، بالطمأنينة، شعور لم يتوقعه. وعقد العزم على أن يحكي لها قريبًا، ربما في الغد، حكاية الليلة الماضية، أن يحكي كما لو كان كل ما عايشه حلمًا؛ ثم، وبعد أن تشعر بمدى تفاهة مغامرته وتدركها، يود أن يعترف لها أن الأمر كان حقيقة. حقيقة؟ هكذا سأل نفسه، ولاحظ في تلك اللحظة، وبالقرب تمامًا من مُحيا «ألبرتينه» على الوسادة المجاورة ـ وسادته ـ شيئًا داكنًا، محددًا، وكأنها خطوط محاطة بالظلال لوجه بشري. طوال لحظة توقف قلبه عن النبض، وفي اللحظة التالية عرف كنه الشيء، فمد يده إلى الوسادة، وأمسك بالقناع الذي كان يرتديه في الليلة الفائتة، والذي سقط منه من دون أن يلاحظ صباح اليوم عندما كان يلفه، ووجدته الخادمة أو ربما «ألبرتينه» نفسها. وهكذا لم يعد يشك في أن «ألبرتينه»، بعد أن وجدته، قد راودتها بعض الظنون، ومن المحتمل أن تكون ظنونها أكثر مما حدث فعلًا وأسوأ منه. ولكن الطريقة التي أفهمته بها ـ فكرة وضع القناع الداكن بجانبها على الوسادة، وكأنه يعني لها الآن وجهه هو، وجه زوجها، الذي أمسى غامضًا بالنسبة إليها ـ هذه الطريقة المؤلمة التي تكاد تكون متعجرفة، والتي تعبرِّ في الوقت ذاته عن تحذير هادئ واستعداد للصفح، كل هذا منح «فريدولين» الأمل المؤكد في أنها كانت تميل إلى عدم أخذ الأمور بجدية أكثر من اللازم، وبالتأكيد لأنها تذكرت حلمها هي الذي كان من المحتمل حدوثه أيضًا. لكن «فريدولين»، وقد خارت قواه فجأة، ترك القناع يسقط على الأرضية، ثم راح ينتحب على نحو لم يتوقعه، ينتحب بصوت عالٍ ومؤلم، ثم انهار بجانب الفراش، وأخذ يبكي بصوت خافت، دافنًا وجهه في الوسائد.

بعد ثوانٍ قليلة شعر بيد لينة تمر على شعره. رفع رأسه، ومن أعماق قلبه صدرت الجملة التالية:

ـ أريد أن أحكي لكِ كل شيء.

رفعت أولًا اليد، وكأنها تصده صدًّا خفيفًا؛ فأمسك بها، وأبقاها في يده، وتطلع إليها وكأنه يتساءل ويرجوها في الوقت ذاته، فأومأت إليه، وبدأ يحكي.

عندما انتهى «فريدولين»، كان ضياء الفجر ينتشر رماديًّا عبر الستائر. لم تقاطعه «ألبرتينه» ولا مرة واحدة بسؤال ينم عن الفضول أو نفاد الصبر. شعرت بالراحة لأنه لم يُرِد أن يكتم عنها شيئًا، أو لم يستطع ذلك. كانت ترقد هادئة، وقد التفت ذراعاها تحت رقبتها، وظلت صامتة فترة طويلة بعد أن انتهى «فريدولين». وأخيراً ـ كان قد تمدد بجانبها ـ انحنى فوقها، ونظر إلى وجهها الجامد بعينيه الكبيرتين الفاتحتين، اللتين بدا الصباح فيهما الآن وهو يبزغ، وسألها يائسًا ومفعمًا بالأمل في آنٍ واحد:

ـ ماذا علينا أن نفعل يا «ألبرتينه»؟

ابتسمت، وبعد تردد قصير أجابت:

ـ أن نشعر، على ما أظن، بالامتنان للقدر، لأننا خرجنا سالمَين من كل هذه المغامرات، سواء الحقيقية أو التي حلمنا بها.

ـ هل أنتِ متأكدة من ذلك؟

ـ متأكدة بقدر حدسي أن حقيقة ليلة، بل حتى حقيقة حياة إنسان بأكملها، لا تعني في الوقت ذاته حقيقته الداخلية.

فتنهد بصوت خافت قائلًا:

ـ وليس ثمة حلم هو حلم تمامًا.

بكلتا يديها أمسكت برأسه وأوسدته بشوق على صدرها، وقالت:

ـ لقد استيقظنا الآن... لفترة طويلة.

أراد أن يضيف: «إلى الأبد»، ولكن قبل أن ينطق بالكلمات، وضعت إصبعًا على شفتيه، ثم همست، وكأنها تهمس لنفسها:

ـ لا تتحدث أبدًا عن المستقبل.

رقد كلاهما صامتَين، غافيَين، بلا أحلام، وكل منهما قريب من الآخر، إلى أن قُرع باب الغرفة في السابعة مثل كل صباح، وبالضجيج المعتاد من الشارع، وبشعاع منتصر من الضوء اخترق فتحة بين ستارتَين، وبضحكة طفولية انبعثت من جوارهما، بدأ اليوم الجديد.

الكاتب

يُعتبر الكاتب والطبيب النمساوي «أرتور شنيتسلر» (١٨٦٢-١٩٣١) من أهم رواد الحداثة الفييناوية. عمل طبيبًا في مستشفى فيينا العام في قسم الأمراض الباطنة وقسم الأمراض النفسية والعصبية، ثم مساعدًا لأبيه الطبيب في قسم أمراض الحلق بمستشفى فيينا. بعد وفاة والده في عام ١٨٩٣، ترك المستشفى وافتتح عيادة خاصة.

بدأ نجمه الأدبي في الظهور مبكرًا عندما نشر نصوصًا أدبية وقصائد، وكان يهتم في أعماله بالحالة النفسية لأبطاله، التي تعكس أيضًا حالة المجتمع الفييناوي آنذاك. ومع مطلع القرن العشرين كان «شنيتسلر» واحدًا من أهم منتقدي الإمبراطورية النمساوية-المجرية، وبعد أن نشر نوفيلا بعنوان «النقيب جوستل» (التي استخدم فيها المونولوج الداخلي لأول مرة في الأدب الألماني)، نُزعت عنه رتبة «طبيب أول ضابط احتياطي» لهجومه فيها على أخلاقيات الضباط. ثم توقف بعد فترة عن ممارسة الطب وتفرغ للكتابة في مسقط رأسه مدينة فيينا، التي لم يغادرها حتى وفاته.

لاقت أعمال كثيرة له الشهرة وأحدثت جدلًا بين النقاد والقراء، ومُنعت في أثناء حكم النازيين، وتحول عدد منها إلى مسرحيات وأفلام شهيرة. من أهم أعماله: «الدائرة»، و«شهرة متأخرة»، و«احتضار»، و«الآنسة إلزه». وتُعتبر نوفيلا «حلم» من أشهر أعماله، وهي الأساس الأدبي لفيلم «ستانلي كوبريك» المعروف «Eyes Wide Shut» («عيون مغلقة على اتساعها»).

المترجم

درس سمير جريس الألمانية وآدابها في القاهرة و«ماينتس» بألمانيا، وترجم من الألمانية نحو خمسة وعشرين عملاً من الأعمال الأدبية المعاصرة، منها: «عازفة البيـانو» لـ«إلفريده يلينـك» (نوبـل ٢٠٠٤)، و«صـداقة» لـ«توماس برنـهارد»، و«العاصمة» لـ«روبرت ميناسه». وألّف كتابًا عن الكاتب الألماني «جونتر جراس» بعنوان «جونتر جراس ومواجهة ماضٍ لا يمضي».

صدرت له عن «الكرمة للنشر» رواية «الوعد» للكاتب السويسري «فريدريش دورِنمات»، والقصة الطويلة «تقرير موضوعي عن سعادة مدمن المورفين» لـ«هانس فالادا».

حصل جريس على «جائزة الشيخ حمد للترجمة والتفاهم الدولي» عام ٢٠١٨، و«جائزة معهد جوته للترجمة الأدبية» في فئة المترجمين المتمرسين عام ٢٠١٤، والجائزة الأولى في ترجمة القصة من المجلس الأعلى للثقافة في مصر عام ١٩٩٦.